بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مُحاضَراتُ مِقْياس:

المدارسُ النَّحْويّة

لطلبة السنة الثالثة لسانيات عامة

مقدمة: هذه مجموعة من المحاضرات المقررة على طلبة السنة الثالثة في شعبة اللسانيات العام، وهي مكيفة في إعدادها وفقا للمقرر الوزاري، ومادتها هي المدارس النحوية، وهي من هنا تصب في غرض تعميق معرفة الطالب بالنحو العربي على جهة التعرف على مناهج البحث فيه في التراث العربي، لأن المأمول هو إفهام الطالب أن المدارس النحوية مفهوم علمي مرادف للمناهج التي تتعدد وتتنوع في بحث الظاهرة الواحدة ووصف نظام اشتغالها، ويعطف عليه الوصول بالطالب إلى تشكيل تصور لديه عن أن العمل التراثي النحوي قد كان من التطور بحيث تتوزع جهود المشاركين فيه على طرائق من النظر العلمي تبرزها جملة من الأسس والمبادئ المنهجية التي ينتج عن إعمالها في اللغة تجريد القوانين والقواعد التي بها يتحقق الاستعمال الصحيح للعربية.

إذن هي محاضرات بعضها يبني في علم الطالب مفهوم أن يكون الاشتغال في النحو مدرسة، أو مذهبا، وبعضها يضعه في مواجهة الجهود التي قدمها البصريون والكوفيون والبغداديون والمغاربة، ووو لهذه الصناعة المسماة: النحو. وبعضها يواجه عبره قضايا لغوية تصب في غرض بناء الفكر اللساني بمفهومه العام لدى الطالب. حيث يعامل مفاهيم من قبيل السماع والقياس والاطراد والشذوذ والتعليل ووو وغيرها من المفاهيم العلمية ذات القيمة العالية في بناء العقلية اللسانية لديه.

المحاضرة الأولى: مفاهيم تأسسية: (المذهب. الاتجاه. المدرسة النحوية).

- **أولا: الاتّجاهُ:**

1- في اللغة: اتَّجهَ إلى يتّجِه، اتّجاهًا، فهو مُتّجِه، والمفعول مُتّجَه إليه• اتَّجه إلى الحدود أو نحوها: أقبَل عليها وقصَدها "اتّجه الشخصُ إلى البيت- اتّجه الطالب إلى المحاماة/ دراسة الطِّبّ- اتّجه الصاروخُ بدقّة نحو الهَدَف [1].

*** ***

2- في الاصطلاح: يمكن تعريف الاتجاهات تعريفاً جامعاً شاملاً على أنها (تنظيم متناسق من المفاهيم، والمعتقدات، والعادات، والدوافع بالنسبة لشيء محدد). وليس معنى هذا التعريف أن مفاهيم هامة مثل الدوافع وخصائص الشخصية ليس لها وظيفة إلا أن تكون جزءاً من الاتجاهات بل على العكس فإن لها وظائفها الأساسية الخاصة ولكنها إلى جانب هذا تتكامل وتتفاعل لتنشئ اتجاهات الفرد وميوله حيال أشياء بعينها. ويميل البعض إلى التمييز بين القيم وبين الاتجاهات [2].

والشخص لا يستطيع تكوين اتجاه حيال أي شيء أو شخص إلا إذا كان هذا الشيء أو الشخص موجوداً في محيط إدراكه. أي أن الفرد لا يستطيع تكوين اتجاهات حيال أشياء لا يعرفها أو حيال أشخاص لم يتفاعل معهم، فالشخص المقيم في غابات الكونغو قد يصعب تصور أنه يحتفظ باتجاهات حيال أصحاب الملايين في أمريكا. وينطبق هذا الوصف على الشخص الأمريكي العادي الذي تبعد أشياء كثيرة من معالم الحياة خارج الولايات المتحدة عن مجال إدراكه وبالتالي فهو لا يستطيع تكوين اتجاهات حيال قضية فلسطين مثلاً لأنه لا يعرف عنها شيئاً.

- **المذهب:**

([1]) ينظر: لسان العرب (وجه)

([2]) أبحاث في المذاهب النحوية، كارم عبود، ص 20.

1- في اللّغة: المذهب، في اللغة العربية هو الطريق والسبيل [3].

2- في الاصطلاح: هو طريقة البحث سواءً كان في العقيدة أو في الفقه أو في أصول الفقه وفي علوم الحديث أو في اللغة العربية أو غيره من العلوم الشرعية[4].

والمذهب: مصدر كالذهاب، وذهب به وأذهبه غيره: أزاله، والمذهب: المتوضأ؛ لأنه يذهب إليه. والمذهب: المعتقد الذي يذهب إليه. واصطلاحا: الأحكام التي اشتملت عليها المسائل شبهت بمكان الذهاب بجامع أن الطريق يوصل إلى المعاش، وتلك الأحكام توصل إلى المعاد أو بجامع أن الأجسام تتردد في الطريق، والأفكار تتردد في تلك الأحكام، ثم أطلق عليها المذهب استعارة مصرحة. أي: استعارة تصريحية تبعية بأن شبه اختيار الأحكام بمعنى الذهاب واستعير الذهاب لاختيار الأحكام، واشتق منه مذهب بمعنى أحكام مختارة، ثم صار حقيقة عرفية حكاه المحشي عن شيخه، والبجيرمي[5].

ويطلق المذهب عند علماء الفقه على الأحكام الفقهية المستفادة من أدلتها بطريق الاجتهاد [6]، ويطلق المذهب في الحقيقة على ما ذهب إليه إمام المذهب من الاختيارات والأحكام المنسوبة إليه، فالمذهب بالمعنى الحقيقي يطلق على فقه إمام المذهب، فمثلا: فقه الإمام أحمد، هو المذهب حقيقة. ومذاهب الأئمة التي اشتهرت وعمل أصحاب الأئمة من بعدهم على نقلها وتحريرها وتنقيحها بقيت تحمل اسم إمام المذهب المعمول به، لكن أصحاب إمام المذهب من بعده إذا كانوا من مجتهدي التخريج فتخريجاتهم في مذهب إمامهم لا تنسب إلى إمام المذهب، بل تنسب إلى الأصحاب، ويكون تخريج الأصحاب على فقه الإمام هو المذهب بالمعنى

([3]) معجم المقاييس ص56.

([4]) أساليب البحث في الفكر الإسلامي، صلاح عيسى ص 36.

([5]) البحث النحوي في القديم والحديث، حسن إسماعيل حسن ص 325.

([6]) إرشاد الفحول، للشوكاني 68/1.

الاصطلاحي، والتخريج في كل مذهب يكون على فقه الإمام، ويكون على غيره، ومعلوم أن المخرج على غير فقه الإمام لا يكون مذهباً له.

*** *** ***

- **المدرسة النحوية: يشيرُ مصطلح المدارس النحوية إلى اتِّجاهات مختلفة ظهرت في مجال دراسة علم النَّحو في اللغة العربية، وقد اختلفت هذه المدارس النحوية في بعض المسائل النحويَّة الفرعيَّة، وقد ارتبطَ كلٌّ منها بمدينة أو إقليم جغرافيٍّ معيَّن، كمدينة البصرة أو الكوفة أو كإقليم الأندلس أو مصر [7].**

المعنى اللغوي: جاء في لسان العرب: "درست: أي تعلمت، ودرست الكتاب أدرسه درسًا أي ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه علي".
والمدرسة اسم مكان يطلق على مكان الدرس.
المدرسة في الاصطلاح النحوي: تناول الدارسون مصطلح المدرسة في النحو فقال بعضهم: "... فإن هذا المصطلح يعني في نظرنا، وجود جماعة من النحاة، يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو، ولابد أن يكون هناك الرائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج، والتابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه ويتبنون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه"[8].
وسوف نعرض لهذا التعريف بشرح موجز؛ فالمدرسة النحوية تطلق على جمع من النحويين ينتمون إلى نهج موحد في وصف نظام اللغة، مع وجود مرجعية واحدة يأخذون منها في الدراسة النحوية. ولكن هل استعمل المتقدمون هذا الإطلاق؟
ممن تناول هذا الأمر الدكتورة خديجة الحديثي وانتهت إلى أن الأوائل من النحاة لم يستعملوا مصطلح المدرسة، بل كانوا يكتفون بنسبة لنحوي إلى بلده فيقولون من نحاة البصرة ومن نحاة الكوفة، وربما استعملوا كلمة (أهل) فقالوا أهل البصرة وأهل الكوفة، كما استخدموا مصطلح المذهب أحيانا. تقول: "يتضح من هذا العرض لمناهج

([7]) المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص 60.
([8]) البحث اللغوي عند العرب ص 36.

الذين أرخوا للنحو والنحاة من القدماء أنهم لم يستعملوا كلمة "مدرسة" في تصنيفهم لهذه المجموعات النحوية وإنما اتبعوا في ترتيبهم نسبتهم إلى البلد الذي ظهروا فيه وتعلموا نحوه ودرَسوه ودرَّسوه، فهم بصريون وكوفيون وأهل بغداد ومصريون وأندلسيون ومن أهل قرطبة ومن أهل دمشق ولم يستخدموا كلمة مذهب في التقسيم إلا ابن النديم في تسميته من ترجم لهم في القرن الثالث[9].

([9]) المدارس النحوية، ص 21.

المحاضرة الثانية: أسباب ظهور المدارس النحوية (السياسية-المعرفية-المذهبية):

الكتابة في موضوع المدارس لم تعرض إلى هذه النقطة بالذات أي أسباب ظهور هذه المدارس. وكتابات شوقي ضيف وخديجة الحديثي والراضي تخلو من هذا، فضيف في كتابه "المدارس النحوية" وخديجة الحديثي كلاهما عرض فيما كتب إلى:

- **بيان أهمية الموضوع**
- **المدرسة البصرية: نشأة النحو، البصرة، أعلامها، أصول البحث عندها وخصائصه.**
- **المدرسة الكوفية ونشأتها وأعلامها.**
- **مدارس مختلفة ذكر فيه المدرسة البغدادية، والأندلسية فالمصرية [10].**

وهو الأمر نفسه عند الدكتورة خديجة الحديثي:

- **المقدمة: فكرة المدارس النحوية القدماء منهم والمعاصرين.**
- **الفصل الأول تبدأ بالمدرسة البصرية.**
- **الفصل الثاني: المذهب النحوي في الكوفة.**
- **الفصل الثالث: النحو في بغداد.**
- **الفصل الرابع: النحو في أقطار الوطن العربي.**

ومع ذلك فإنه يمكن من إدامة الإمعان في أعمال هؤلاء الباحثين الأفذاذ استخلاص أسباب لظهور المدارس النحوية:

1- أسباب ترجع العصبية المذهبية.

2- أسباب جغرافية.

3- أسباب علمية بحتة تتعلق بالقراءات القرآنية [11].

فالعصبية المذهبية تجسدها المناظرات التي كانت دافعا لصنع فكرة المدرسة النحوية، وأبرزها مناظرة سيبويه مع الكسائي، وهي المعروفة بـ: (المسألة الزنبورية).

([10]) المدارس النحوية 290.

([11]) محاضرات د. بلقاسم غزيل.

ومختصرها أن سيبويه تاقت نفسه إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية يومذاك فلما وصل إليها وهو من هو في مراتب النحاة البصريين حل بمجلس فأراد الحاضرون أن يدفعوه إلى مناظرة بينه وبين الكسائي رائد المدرسة الكوفية فقال الكسائي لسيبويه كيف تقول: كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها. فقال سيبويه: فإذا هو هي ولا يجوز النصب. فقال له الكسائي: لحنت، وعقدت مسائل أخرى شبيهة فلم يجز سيبويه النصب، فاحتكم إلى الوافدين على باب الخلافة وكانوا يعلمون مكانة الكسائي لدى العباسيين فارتضوا رأيه، فخرج سيبويه منكسرًا من بغداد [12]

وهناك مناظرة أخرى كانت بين الكسائي واليزيدي، وربما عدها بعضهم انتقاما من اليزيدي لأستاذه عما جرى له في المسألة الزنبورية، وهذه قصتها: أن اليزيدي قال للكسائي أتجيز هذين البيتين؟: (من مجزوء الرمل)

لا يكـون العيـر مُهـــــرًا * لا يكـون المُـهْـــــرُ مُـهْـــرُ**

فأجاب الكسائي أجيزه على إقواء، لأن حقه أن يقال هكذا: لا يكون مُهْرُ مُهْرًا، فقال له اليزيدي: لقد لحنت، لا يجوز: لا يكون المُهْرُ مُهْرًا، وقراءة الرفع صواب وتوجيهها هو:(لا يكون) توكيد لفظي والمهر مهر مبتدأ وخبر [13].

وللإقليم أثر في بلورة فكرة المدرسة:

1- المربد: السوق المعروفة، وكانت بالبصرة تعج بالشعراء والأدباء، ما يجعل للبصرة من خلالها تميزا يؤهلها لأن تكون وجهة علمية مستقلة عن البلاد التي لا تعرف مثلها.

2- الكناسة: وهي سوق بالكوفة، ولقد هيأت بالأمر نفسه لأن تستقل الكوفة بروح معرفية مختلفة.

والسبب العلمي المتعلق بالقراءات لمعلوم أن القراءة القرآنية هي شأن لغوي في المقام الأول، ولقد كان لكل من البلدين تعامل مختلف مع هذه القراءات.

([12]) نشأة النحو العربي، طنطاوي، ص101.

([13]) المسائل الملقبات في النحو، ص73.

المحاضرة الثالثة: مصادر المدارس النحوية:

مصادر الدراسة عند البصريين:

المعروف عن البصريين أنهم في مجال التأسيس لقواعدهم النحوية اتخذوا نمطًا صارمًا في مرجعياتهم اللغوية إذ كانوا لا يقبلون من اللغات إلا ما يمتاز بالكثرة والغلبة في الاستعمال ولا يضعون القاعدة النحوية إلا بعد استقراء شديد الدقة، عميق الملاحظة، وما لم يتحقق فيه الغلبة والكثرة ردوه إلى الشذوذ أو وصفوه بأنه لغة من اللغات[19].

ومن خلال هذه الإطلالة يمكن أن نستعرض جملة من المصادر التي كان نحاة البصرة يعتمدونها في دراساتهم اللغوية وهي:

أولاً: القرآن الكريم:

فهو بلا منازع المصدر الأصدق والمرجع الأصح الذي يطمئن إليه النحاة في استنباط قواعدهم وتحقيق أصولهم لأنه [أي القرآن الكريم]، حفظ في الصدور قبل السطور، وضمن تواتر رواياته على مرّ الزمان، كما أنه جلب اهتمام الدارسين وكتابتهم منذ فجر نزوله، وما لم يكن متواترًا من القراءات تحفظوا من الاستدلال به[20].

ويفرد الدكتور التواتي بن التواتي في كتابه: (القراءات القرآنية وأثرها في النحو العربي والفقه الإسلامي)، يفرد مبحثا خاصا بموقف البصريين من القرآن الكريم وقراءاته، ويؤكد أن البصريين اتخذوه ملاذهم الأول ومصدرهم الأصيل في دراساتهم النحوية لأنه يصلح لإقامة القاعدة النحوية مع موافقة القراءة القرآنية وجهًا من وجوه النحو، ونستنتج بعد ذلك أن النحو في بداية نشأته أقيم في الأساس خدمة للقرآن الكريم[21].

ثانيًا: الشعر الجاهلي والإسلامي:

آثر البصريون الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي كثيرًا، ورأوا أنهما أصدق النصوص بعد القرآن الكريم لنقاوتهما من الدخيل الأجنبي، وخلوهما مما يعكر صفو السليقة اللغوية التي يتمتع بها أولئك الشعراء في هذين العصرين، كما أن البصريين مدوا حبل الاستشهاد وأوصلوه إلى شعراء بني أمية جرير والفرزدق والأخطل، وقبلوا

الاستشهاد بشعر رؤبة بن العجاج وأبي النجم وبشار بن برد، وتوقفوا عند الشاعر إبراهيم بن هرمة الذي عمر طويلاً إذ تجاوز النصف الثاني من القرن الثاني الهجري فهو عندهم آخر من يستشهد به من الشعراء[22].

ثالثًا: العرب الفصحاء:

رفض البصريون الأخذ عن أهل الحضر لأن ألسنتهم مظنة التأثر بألسنة الأعاجم فآثروا التطواف في بوادي الجزيرة العربية يأخذون عن القبائل الموغلة في الانعزال عن غيرها والتي بقيت لغتهم سليقية فصيحة لم تشبها شائبة اللحن والاختلاط بالأجناس فقد أخذ الخليل عن القبائل في بوادي نجد وتهامة والحجاز، وهذا التشدد في الانتقاء اللغوي والتحري عن أصول السلامة اللغوية كان جليًا في كتاب سيبويه، إذ تجافى كل شاهد فيه مظنة الانتحال أو الافتعال[23].

ومما يؤكد اعتماد البصريين في شواهدهم على أهل البادية العرب الخلص أن البصريين كانوا يفتخرون على الكوفيين لأنهم يأخذون عن أهل الحضر الذين لوثت لغتهم عادية اللحن عند الأعاجم من فرس وروم، فقال البصريون: نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ[24].

رابعًا: أمثال العرب وحكمهم:

لا تخلو الأمم من الأمثال والحكم، والمثل هو قول قصير مجهول القائل غالبًا يجري على الألسن بغية إصلاح الناس وتوجيههم إلى دروب السلامة وأسباب النجاح، ويعد العرب من الأمم التي كثرت أمثالها وحكمها فكان موقف البصريين أن قبلوا هذه الأمثال والحكم مصادر لمدونتهم من الشواهد لأن هذه الأمثال والحكم وإن كانت مجهولة القائل غالبًا غير أنها امتازت بالتكرار والتواتر، ومن بين ذلك: الصيف ضيعتِ اللبن، رجع بخفي حنين [25].

وأما الحديث النبوي الشريف، فإن أوائل النحاة البصريين رفضوا الاستشهاد به واتخاذه مصدرًا للقواعد النحوية ومن حججهم على ذلك أن الحديث النبوي يجوز أن يروى بالمعنى، وأن المشتغلين به هم من الأعاجم، ولابد من الإشارة إلى أنه ليس

كل البصريين رفضوا الاستشهاد بالحديث النبوي، فمنهم من أكثر الاستشهاد به وفي مقدمتهم محمد بن مالك الأندلسي[26].

وفي هذه المسألة لابد من التنويه إلى أن موقف البصريين من الاستشهاد بالحديث النبوي، قد قوبل بالرفض من قبل كثير من الدارسين خاصة المحدثين منهم، و الذين استهجنوا عدم قبول البصريين الحديث النبوي مصدرًا من مصادر التقعيد النحوي، وردوا عليهم بأن علماء الحديث قد وضعوا منهجًا دقيقًا في قبول الرواية واتخذوا علمًا جديدًا يُعد من أدق المناهج إلى العصر الحديث وهو ما يعرف بعلم: (الجرح والتعديل)[27].

مصادر الدراسة عند مدرسة الكوفة:

لقد علمت فيما سبق أن البصرة كانت أسبق إلى النحو من الكوفة بزمن طويل، وأن نشأة النحو وتأسيس قواعده كان بالبصرة وأن شيخ البصريين الخليل بن أحمد الفراهيدي قد تتلمذ على يديه عالمان من أعلام البصرة والكوفة هما سيبويه منظر النحو البصري بمؤلفه: (الكتاب) والكسائي زعيم الكوفيين صاحب النحو وإمام القراء. ومعلوم أن هذا العلم انتقل من البصرة إلى الكوفة من خلال رحلات طلاب النحو إلى البصرة وعودتهم إلى مدينتهم الكوفة بهذا العلم، فالكوفة مدينة للبصرة بمعظم مصادر دراستها في مجال النحو.

غير أنه من المفيد أن تعرف أن الكوفيين لم يأخذوا ما تعلموه من البصريين قلبًا وقالبًا إنما تصرفوا فيه بالزيادة والنقص والتحويل والتأويل ينشدون في كل ذلك مقام التميز ويرنون إلى مراتب الإبداع والسبق.

وبعد هذا يمكن أن نوجز لك أهم مصادر الدراسة عند نحاة الكوفة:

أولاً: النحو البصري:

سمع الكوفيون نحو البصريين وتتلمذوا على أعلامهم أمثال: عيسى بن عمر والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب والأخفش، كما حضر الكوفيون مجالس البصريين وندواتهم في علم النحو وأخذوا عنهم كتاب سيبويه تلقينًا وشرحًا، وانطلق الكوفيون من هذا المصدر البصري يبنون لمذهبهم صرحًا جديدًا[28].

ثانيًا: لهجات عربية معتمدة من قبل البصريين:

تقبل الكوفيون الشواهد اللغوية التي اعتمدها البصريون والتي نقلوها عن القبائل العربية الموغلة في البداوة مثل قيس وهذيل، كما أخذ الكوفيون عن جزء من بني كنانة وبني طيء، وهذه المرونة كما ترى خالصة من شوائب التأثر بالأجنبي لأنها لهجات أهل البوادي والأرياف[29].

ثالثًا: لهجات عربية تحاماها البصريون:

وهي لهجات القبائل العربية المتاخمة للكوفة كتميم وأسد ونزار، وقبائل أخرى جاورت بغداد كأعراب الحليمات الذين ظاهروا الكسائي على سيبويه في المسألة الزنبورية، وكان الفضل في هذا الجمع للكسائي الذي خرج إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة يجمع ما لم يتمكن البصريون من جمعه[30].

وللأمانة العلمية لابد من الإشارة إلى أن الكوفيين لم يكونوا يقبلون كل ما يرفضه البصريون، بل إن الكوفيين اطرحوا لهجات اتسمت بالميوعة اللغوية والبعد عن القياس العربي، من ذلك ما يعرف بعنعنة قضاعة وقيس وتميم، وفحفحة هذيل، وعجعجة قضاعة، وكشكشة ربيعة[31].

رابعًا: الشعر العربي:

وافق الكوفيون البصريين في قبول الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي أضافوا إليه ما كان يرويه كل من خلف الأحمر وحماد الراوية، وتمادى الكوفيون في قبول الشواهد الشعرية، فقد قبلوا البيت المجهول القائل وبنوا بعض قواعدهم على البيت الواحد، وقد ثبت أن خلفا الأحمر كان يصنع الأبيات ويقدمها للكوفيين فيقبلونها ويضعونها شواهد على قواعد لهم[32].

خامسًا: القراءات القرآنية:

قبل الكوفيون كل القراءات ما كان منها متواترًا وما كان شاذًا لأن مذهبهم –كما رأيت من قبل– مبني على التوسع في قبول الرواية، والترخص في الاعتماد على الشواهد ولم يكونوا مثل البصريين الذين خطأوا بعض القراءات ورفضوها وردوها وضعفوها[33].

وفي ختام الحديث عن مصادر الدراسة عند المدارس النحوية لابد من الإشارة إلى قضية هامة وهي أنه لم تؤخذ اللغة عن أهل الحضر، ولا عن القبائل المتاخمة للعجم، فلم تقبل لغة لخم وجذام بسبب قربهما من أقباط مصر، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمساكنتهم أهل الشام وقد كانت لغتهم العبرانية ولم تقبل لغة اليمن لمجاورتهم الحبشة، ولا بكر لمجاورتهم الفرس، ولا ثقيف والطائف لأنهم كانوا على اتصال بتجار اليمن[34].

ملخص المحاضرة:

من خلال ما مرّ آنفا علمت أن مصادر الدراسة النحوية عند البصريين هي: القرآن الكريم الشعر العربي الجاهلي و الاسلامي، لغة العرب الفصحاء، و أمثال العرب و حكمهم. و أما مصادر الدراسة النحوية عند الكوفيين فكانت: النحو البصري، لهجات عربية معتمدة من قبل البصريين لهجات عربية تحاماها البصريون، الشعر العربي و القراءات القرآنية.

و الأمر الذي يجب أن يعرف في مصادر الدراسة عند المدارس النحوية القديمة أن اللغة لم تؤخذ عن أهل الحضر، و لا عن القبائل المحاذية للأعاجم

المحاضرة الرابعة: مناهج المدارس النحوية العربية القديمة: الاختلاف، التخريج.

إن أول ما يميز هذه المدارس عن بعضها هو المنهج في تناول الظاهرة اللغوية بالوصف، ومكونات المنهج الذي هو موطن الاختلاف هي:

1- السماع: وله تعريفات شتى، منها أنه تناول المادة اللغوية من مستعمليها نطقا وتداولا [14]

وهذا معناه أن السماع مراد به أن عالم اللغة هو من يجمع اللغة جمعا مباشرا ثم يهيئها للدرس. والمعروف أن كلا من البصريين والكوفيين اتفقوا على ضرورة أخذ اللغة أخذا مباشرا [15].

وإن كان ثمة فرق بين سماعي الفريقين ففي اشتراط البصريين الكثرة في المسموع لتصحيح القياس، وتسامح الكوفيين في القياس على القليل.

2-القياس: وهو " حمل أصل على فرع بعلة، وإجراء حكم الأصل على الفرع "[16].

وهذا معناه أن القياس إجراء ذهني عند الباحث اللغوي من جهة أنه يطلق حكم المسموع منها على غير المسموع؛ كصوغ اسم الفاعل من كل فعل ثلاثي على وزن (فعل) كتب كاتب فليس كل أسماء الفاعلين مسموعة من العرب الفصحاء، فجاز أن يقاس على ما سمع؛ يقول ابن جني: "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب"[17].

والمدرستان متفقتان على وجوب القياس فإنتاج المفهوم النحوي؛ قيل عن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وهو من أوائل النحاة "أول من بعج النحو ومد القياس"[18].

([14]) أصول النحو العربي، محمود نحلة، ص56.

([15]) الرواية في اللغة، محمد عيد، ص 35.

([16]) لمع الأدلة في أصول النحو، 33.

([17]) الخصائص، 69/2.

([18]) طبقات النحويين، ص59.

والقياس إنما يكون على المطرد، والاطراد مناط القياس [19] ويقول الدكتور شوقي ضيف: "وطبيعي أن يكثر القياس في كتاب سيبويه كثرة مفرطة لأنه الأساس الذي يقوم عليه وضع القواعد النحوية والصرفية واطرادها هو يعتمد عنده في أكثر الأمر على الشائع في الاستعمال على ألسنة العرب"[20]. واشتهر عن الكسائي قوله في القياس:

إنمـــا النحـــو قيــاس يتبع   وبه فـي كل أمـر ينتفع
فإذا ما أبصر النحو الفتى   مر في المنطق مرّا فاتسع[21].

ومما قيل في التفريق بين منهجي المدرستين في القياس ما قال شوقي ضيف: «.. فقد استخدموا –الكوفيون– القياس أحيانًا بدون استناد إلى أي سماع، ونضرب لذلك مثلاً قياسهم العطف بلكن في الإيجاب على العطف ببل في مثل "قام زيد بل عمرو" فقد طبقوا ذلك على لكن وأجازوا "قام زيد لكن عمرو" بدون أي سماع عن العرب»[22].

3- التعليل:

قيل في التعليل: "يقصد بالتعليل في النحو التفسير اللغوي للظواهر المستنبطة من كلام العرب وهذه العلل مستنبطة استنباطًا من اللغة وليست بالضرورة واجبة وكما فسرها هذه العالم أو ذاك، وبمعنى آخر علل النحو ليست كعلل الطبيعيات مثل علة الاحتراق النار. إنما هي نتيجة اجتهاد من النحاة للاستدلال على براعة الواضع العربي ودقته وفهمه للغته، يقول أبو القاسم الزجاجي عنها: "أقول أولاً إن علل النحو ليست موجبة وإنما مستنبطة أوضاعًا ومقاييس"[23].

([19]) القاعدة النحوية، ص: 68.

([20]) المدارس النحوية، 126.

([21]) طبقات النحويين، ص 228.

([22]) المدارس النحوية، ص35.

([23]) الإيضاح في علل النحو، 57.

واشتهر الخليل بن أحمد بالتعليل؛ يقول شوقي ضيف عن الخليل: «وكان يسند دائمًا ما يستنبطه من القواعد والأحكام بالعلل التي تصور دقته في فقه الأسرار اللغوية والتركيبية التي استقرت في دخائل العرب من قديم [24].

ولما سئل الخليل عن العلل التي استنبطها من اللغة أهي من عند العرب قصدوها قصدًا أم هي من عنده اخترعها اختراعًا، فقال ما نصه: «إنَّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل عنها، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما علته منه...» [25]

ويعرض الدارسون إلى اهتمام سيبويه بالتعليل لما يطرد في كلامهم، ولما يخرج عن المطرد فيقول: "وتكثر التعليلات في كتاب سيبويه كثرة مفرطة، سواءً للقواعد المطردة أو للأمثلة الشاذة ... بل يعلل أيضًا لما يخرج على تلك القواعد"[26].

وتقول الدكتورة خديجة الحديثي عن التعليل عند الفراء الكوفي: «ومن ذلك موقفه المخالف للخليل في تفسير بعض الكلمات الجامدة مع قولهما معًا بتركيبهما إلا أنهما اختلفا في التحليل فذهب الخليل في "هلم" أنها مركبة من "ها التنبيه" والفعل "لُمَّ" وذهب الفراء إلى أن أصلها "هل أم" من الفعل بمعنى "قصد" وفي هذا التحليل غموض في المعنى وإغراق في تفسير الحذف وتأويل المعنى"[27]

رابعًا: الرواية

الرواية عند البصريين غيرها عند الكوفيين، بمثل ما اختلفوا مع القياس من جهة التشدد فيه، بل إن صرامتهم في الرواية أشد فالرواية هي مصدر النصوص التي تبنى عليها القواعد.

يقول أحد الباحثين: «كانوا [يقصد البصريين] لا يطمئنون إلى كل رواية ترد عن العرب في الجاهلية إلا بعد تدقيق وتمحيص فوضعوا مقاييس لتصحيح هذه الروايات

([24]) المدارس النحوية 99.

([25]) المدارس النحوية ص109.

([26]) المدارس النحوية، ص: 156.

([27]) المدارس النحوية، ص25.

الواردة عن العرب، فكان منهجهم في الدقة والتشدد كالمنهج الذي اتبعه علماء الحديث أو أشد وكانوا يرفضون كل ما شذ من الروايات»[28].

وعرف الكوفيون بالرواية أكثر من البصريين حتى قيل إن الرواية شغلتهم عن النحو. قال الشيخ محمد الطنطاوي: «قال أبو الطيب الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله»[29].

"وقد تأثرت المرويات في مرحلة ما قبل التدوين ببعض المؤثرات في السماع ... فلم يكن الرواة جميعًا على قدر واحد من حيث قوة الحفظ ودقته، وأما بعد عصر التدوين فقد تأثرت المرويات وبخاصة الشعر بظاهرة أخرى نتجت عن التدوين ذاته وهي ظاهرة التصحيف"[30].

من مناهج المدارس النحوية العربية القديمة: السماع، القياس، التعليل والرواية ولقد عرفت شيئا من اختلاف المدارس القديمة حول هذه المناهج... فسماع البصريين ليس كسماع الكوفيين. البصريون ينشدون الكثرة والتكرار ومعرفة القائل، والكوفيون يقوم سماعهم على الترخص

والإباحة فقد يقبلون الشاهد الواحد والمجهول القائل.. وأما القياس فلقد رأيناه عند البصريين مستندا على دقة الملاحظة وتحري الصحة والشمول، في حين كان قياس الكوفيين يطبعه التساهل إذ بنوا قواعدهم على الشاذ والنادر.... وأما التعليل فلقد سجلنا ولوع كلا الفريقين به إلا أن تعليل البصريين كان صادرا عن اللغة في حد ذاتها فسروا به ما فهموه من علل العرب في كلامهم دون الخروج عن مجال اللغة وأما الكوفيون فقد كان تعليلهم مطبوعا بالغموض أحيانا مثلما هو (معاني القرآن) للفراء... وفيما يتعلق بالرواية فلقد الكوفيون أكثر رواية للشعر من البصريين.

*** *** *** *** ***

([28]) المدارس النحوية، للتواتي بن التواتي، ص 77.

([29]) نشأة النحو وتاريخ النحو العربي، ص: 166.

([30]) بدايات النحو العربي، صلاح رواي، ص236.

المحاضرة الخامسة: المدارس النحوية في المشرق والمغرب العربيين.

يظهر أنه من الأولى أن نتعرض لمبحث مهم هو وقوع الخلاف في وجود المدارس في التراث:

1- إنكار وجود المدارس النحوية: يتوزع الإنكار على ثلاثة آراء:

- **اتجاه لا يؤمن بوجود هذه المدارس إطلاقًا.**
- **اتجاه ثانٍ يقرّ بوجود مدرسة واحدة أو اثنتين لا أكثر.**
- **اتجاه ثالث يرفض اعتبار الجانب الجغرافي أصلاً معيارًا لهذا التقسيم.**

- الرأي الأول:

ينكر فريق من الباحثين إنكارا مطلقا وجود هذه المدارس النحوية بحجة أن النحو العربي ما كان إلا واحدا، ولم يختلف النحويون إلا في الفروع، يذكر هذا الدكتور إبراهيم السامرائي في قوله: «وقد أنكرت أن يكون مدرستان هما المدرسة البصرية والكوفية فالنحو القديم واحد وإن كان هناك من شيء فاختلاف اللاحقين ممن دعوا بالكوفيين عن المتقدمين من البصريين لمسائل تتصل كما أشرت بالفروع لا بالأصول» [31].

ومن المنكرين بإطلاق علي أبو المكارم، فهو لا يرى وجود هذه المدارس؛ بل ما يسمى مدارس ليس إلا مراحل يقول: «المرحلة الأولى وهي مرحلة نشأة التعليل النحوي، ويمكن أن يعد أباها الشرعي عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وتنتهي هذه المرحلة بالخليل بن أحمد الفراهيدي» [32]. وعن المرحلة الثانية يقول: «وتبدأ هذه المرحلة بتلاميذ الخليل بن أحمد وتنتهي بالزجاج أي أنها تمتد من أوائل القرن الرابع الهجري» [33] . ويقول عن المرحلة الثالثة من التعليل: «تبدأ المرحلة الثالثة

([31]) المدارس النحوية، ص: 87.

([32]) أصول التفكير النحوي، ص 334.

([33]) نفسه، ص340.

من مراحل التطور في التعليل النحوي بعد الزجاج وعلى وجه التحديد تبدأ بابن السراج أبي بكر محمد بن السري»[34]

- **الرأي الثاني: وهذا الرأي معتقده في مدرستين فقط؛ هما البصرة والكوفة، فالنحو بدأ بصريًا ثم نضج كوفيًا، وليس سواهما مما يعرف بالبغدادي والمصري والمغربي غير امتدادات للمدرستين المذكورتين، بل ربما رأى بعضهم أن المدارس كلها ليس إلا فروعا للمدرسة البصرية فقط، ولعل المستشرق "جوتولد فايل" هو رائد من يرى هذا الرأي، قالت الدكتورة خديجة الحديثي: «.. فقال بعضهم أنه لا توجد إلا مدرسة نحوية واحدة هي مدرسة البصرة وأنكروا وجود مدرسة باسم الكوفة وقد سبق إلى القول بهذا "جوتولد فايل»[35]. ولعل مستند القائلين بالمدرستين الاثنتين فقط أن كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) لابن الأنباري لا يعرض إلا لهما والعنوان يحيل على هذا الرأي (الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، البصريين والكوفيين).**

ويحتج المنكرون بما يلي:

- **أنّ الاختلاف بين هؤلاء النحاة كان في الفروع لا الأصول.**
- **أن مصطلح مدرسة مجتلب أساسًا من العلوم الغربية والدليل على ذلك أن أول المستعملين لهذا المصطلح هم المستشرقون.**
- **أن النحاة يأخذون عن بعضهم من قطر إلى قطر فلا يسمح بتميز نحاة كل إقليم عن غيره.**
- **أن الاختلاف يكون بين نحاة الإقليم الواحد فقد اختلف البصريون فيما بينهم كما اختلف الكوفيون.**
- **أن نشأة النحو كانت بالبصرة ومن أتى بعد ذلك من العلماء كانوا عالة على نحاتها.**

([34]) نفسه، ص 342.

([35]) المدارس النحوية، ص: 202.

- **إن بعض الأقاليم أقامت نحوها على انتخاب ما ترتضيه من آراء غيرها مثل مدرسة بغداد في نظرهم ليست مدرسة لأنها مزجت بين آراء البصريين والكوفيين.**

ثانيًا: المقرون بوجود المدارس:

يذهب بروكلمان والمخزومي أنه يوجد ثلاث مدارس للنحو العربي بزيد المدرسة البغدادية، ويضيف طه الراوي ومحمد أسعد طلس مدرسة الأندلس. ولكنها عند شوقي ضيف خمس بإلحاق المدرسة المصرية[36]

ويحتج المقرون بمثل:

- **الاختلاف المصطلحي .**
- **الاختلاف المنهجي.**
- **التعدد في الرأي.**
- **شيوع التصور القاضي بوجودها.**

([36]) المدارس النحوية، ص: 56.

المحاضرة السادسة: المدرسة البصرية: منهجها، أعلامها.

كانت البصرة منشئ علم النحو، وكما عرفنا تعدد الروايات حول أول من وضع النحو، وقد رجح غير واحد الروايات التي تذهب إلى أن عليًّا –كرم الله وجهه– هو الذي أنشأ البدايات الأولى له، وأمر أبا الأسود الدؤلي بإتمامها، ومعه تلاميذه في هذا العمل، أمثال نصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، ويحي بن يعمر، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، ثم استمرت الجهود في البصرة في بناء علم النحو، وقامت عليه حوالي مائة عام في الوقت الذي كانت الكوفة منشغلة عن النحو إلى رواية الشعر، والأخبار[37]، وكان علماء الكوفة، أيضا، مهتمين بالقراءات القرآنية، وضعفت عنايتهم بقواعد النحو إلا ما كانوا يشاركون فيه أساتذتهم من البصريين، فقد كانوا تلاميذهم[38]، ومن هنا فالبصرة تفردت بالمرحلة الأولى من مراحل تأسيس النحو العربي، وهي مرحلة البناء الأول.

ولما سبقت البصرة الكوفة إلى وضع النحو فقد رأى بعض المستشرقين أن نشأة النحو في البصرة مرتبطة بالنحو السرياني واليوناني والهندي، وهو أمر إثباته غير يسير، وخاصة أن نظرية النحو العربي في العامل لا توجد في أي نحو آخر، وقد فسر الدكتور/شوقي ضيف سبق البصرة في وضع النحو بأنهم رأوا لبعض اللغات الأخرى أنحاء، فنشطت عقولهم نشاطا قويا، وجعلها تتوجه لأن تضع قواعد النحو.

ويظهر أنه قد كان للبصرة من الصلة بالثقافات الأجنبية في القرن الثاني للهجرة قدر كبير، فهي مرفأ العراق التجاري الأهم، حيث سكنتها عناصر من الشعوب المجاورة هيأتها للاتصال بثقافاتها المختلفة، كما أنها أقرب من الكوفة إلى المدرسة

---

[37] h نشأة النحو ص19.

[38] المدارس النحوية د/ شوقي ضيف ص20.

الفارسية جنديسابور التي كانت جامعة للثقافات اليونانية والفارسية والهندية، ما نتج عنه دخول تلك الثقافات في البصرة، ومن هنا يقع تفسير أن يكون فكر البصرة أدنى إلى الدقة والعمق من الكوفة، وكان الأكثر تهيئة لتأسيس المعارف.[39]

ولا يفهم من هذا أن النحو العربي علم دخيل بسبب التأثر بالثقافات الأجنبية، بل إن النحو العربي أصيل الفكر الإسلامي، مع عدم امتناع الإفادة من العلوم الوافدة، والأخذ من طرائق أهلها في الاستنباط، وعرض الأفكار، وإجراء المنهج، لأن تبادل المعرفة من الظواهر الصحية في حياة الناس.

البصرة هي التي وضعت النحو، ووبه فقد كانت أسبق إليه من الكوفة، وذلك بسبب ما تهيأ فيها من دواعي النضج الفكري، والنماء العقلي، وبسبب من كونها عاصمة ثقافية، فقد ظهر ذلك في أسلوب نحوييها البحثي، ومنهجهم في وضع واستنباط القواعد. وبمعرفة أن أبا الأسود الدؤلي هو من أسس مبادئ النحو بتوجيه من سيدنا علي-رضي الله عنه- فإن الآخذين عنه أقبلوا عليه يفيدون منه كما أخذ تلاميذهم عنهم بعد ذلك، حتى صاروا في ذلك طبقات يفيد سابقها عن لاحقها.[40]

ومنطق الأمور يحتم في الفهم أن يكون ما أسسه أبو الأسود من النحو لا يعدو كونه ملاحظات بسيطة أدى إليها تأمل الأساليب واستقرائها بإنفاق الوسع في ذلك في السياقات المختلفة، كما أتيح من ذلك بناء ضوابط ليست في مستوى القواعد التي تبنى منها الأحكام على نحو متصف بالاطراد[41].

والاطراد في القواعد شرط أساس لصياغة العلم صياغة علمية دقيقة، كذلك يجب أن يقوم على الاستقراء العلمي. وأن تستوفي مع ذلك شرط التعليل، وأن تصير

---

[39] المدارس النحوية ص20،21.

[40] تاريخ النحو/ علي النجدي ناصف ص13.

[41] السابق ص 11.

القاعدة أصلا مضبوطا تحمل عليه الجزئيات وتقاس قياسا دقيقا، وما كان ذلك إلا مما عملته أيدي عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وتلاميذه من علماء البصريين[42].

وبمعرفة أن البصريين يقوم عملهم التقعيدي على اطراد القانون، فقد دفعهم ذلك إلى أن يستقروا الكلام العربي فيستخلصون منه قوانين كلية تحمل وتقاس الجزئيات عليها، ومن وصف منهجهم في الاستقراء أنهم لا يأخذون إلا عن الخلص من العرب الضاربين في أعماق الصحراء، ولا يأبهون إلا بالشاهد الموثق. لذا نجد صاحب الكتاب سيبويه يتمسك بلفظ الثقة ومشتقاته في روايته، ومسموعاته من الشعر والنثر، وهو هنا يبعث اليقين في الآخذين عنه إلى أنه متمسك بالمنهج الذي يؤمنون به في الاستنباط. كما قد كان ينبه على الشاهد الموضوع المصنوع[43].

ومن هنا رأينا رجال البصرة يجدون في الرحلة إلى نجد وبوادي الحجاز وتهامة لجمع المادة التي يبنون عليها قواعدهم، الموصوفة بالنقاء والصفاء والخلوص من شوائب الحضارة، وبعبارة أخرى: أخذوا بشرط البداوة الخالصة في أخذ اللغة المطلوبة للتقعيد، وقد أخذوا عن: قبائل: تميم، وقيس، وأسد، وطيء، وهذيل، وبعض عشائر كنانة[44].

وتأسيسا على عناية البصريين بشرط اطراد القاعدة وتمسكهم الشديد بذلك، فإنهم وضعوا، وقعدوا، وبنوا على أساس من الكثرة والشيوع في الأمثلة المروية عن أهل اللغة. فما إن يجدوا قدرا كافيا من الشواهد، وغلب على ظنهم أن هذا المنقول نهض بوضع قاعدة عامة وضعوها وأسسوها[45]، فهم أهل قياس على الأغلب الأعم

---

[42] المدارس النحوية ص18

[43] تاريخ النحو/علي النجدي ناصف ص 31،32.

[44] المزهر للسيوطي 211/1، والمدارس النحوية د/شوقي ضيف ص 18،19.

[45] من أسرار اللغة د/إبراهيم أنيس ص20.

في اللغة، يتحاشون القياس على القليل، وقد عبر أبو عمرو بن العلاء عن منهج البصريين في القياس حين سأله سائل قائلا: أخبرني عما وضعتَ مما سميته عربية أيدخل فيه كلام العرب كله، قال أبو عمرو: لا، قال السائل: فماذا أنت صانع فيما خالفتك فيه العرب وهي حجة؟ قال أبو عمرو: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات (أي: لهجات)[46].

فيظهر أبو عمرو نظرية البصريين المنهجية في الأخذ عن العرب، فهم يبنون قوانينهم على ما كثر استعماله، فيما عدوا ما جاء مخالفا لقوانينهم المستنبطة من كلام العرب لغات، وربما جاوزا ذلك إلى تأويله بما يرده إلى القياس، وربما سموه قليلا، ونادرا، وشاذا، كما قد يعدونه ضرورة لا تقبل إلا في الشعر.

أما منهج البصريين في الاستدلال بالقرآن الكريم، وقراءاته، فإنهم اعتبروه أصلا أصيلا للتقعيد، فلم يعرف أنهم كانوا دون الكوفيين رتبة في تحمل القرآن الكريم، وفي رواية الشعر، غير أن الكوفيين مالوا إلى السلامة، وقنعوا بما حفظوا، واستطابت المعاودة، والتكرار، في الوقت الذي ظفرت فيه البصرة بالحفظ، ووضع النحو ففازت بهذا وذاك معا[47].

وقد قرر كثير من الباحثين، ومنهم شوقي ضيف أن البصريين كانوا يعدون القرآن الكريم وقراءاته مددا لقواعدهم لا يمكن تخطيه، وتوقف نفر منهم إزاء أحرف قليلة في القراءات لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة وجدوها لا تطرد مع قواعدهم، بينما تطرد معها قراءات أخرى آثروها، كما اجتهد شوقي ضيف في الدفاع عن البصريين في محاججة اتهموهم بتخطئة القراءات، والطعن فيها، فقد توسع بعض المعاصرين في وصف ذلك، ومنهم من قال: إن نحاة البصرة كانوا يرفضون وجوها

---

[46] طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص43، وانظر: من أسرار اللغة ص20.

[47] تاريخ النحو أ/علي النجدي ناصف ص33.

من القراءات ويردونها، اعتبارا لأن ذلك كان موقفا أساسيا لهم إزاء القرآن، وقراءاته، في الوقت الذي لا يوجد عند سيبويه مواقف صريحة تشهد لهذا الاتهام الباطل، وينبه إلى أن الأخفش الأوسط قد تقدم نحاة لكوفيين المتأخرين إلى الأخذ بالقراءات الشاذة، والاحتجاج لها من كلام العرب، يقول: «وفي الحق أن بصريي القرن الثالث هم الذين طعنوا في بعض القراءات، وهي أمثلة قليلة لا يصح أن نتخذ منها ظاهرة خاصة ولا عامة، وقد كانوا يصفونها بالشذوذ ويؤولونها ما وجدوا إلى التأويل سبيلا»[48].

والأقرب للإقناع أن في كلام الدكتور/شوقي ضيف ما يحتاج إلى نظر، كما أن في رأيه هذا تمييزا بين الصدر الأول من البصريين، وبين المتأخرين، فإن نظرية البصريين في الأخذ بالقياس، واطراد القانون النحوي لم يتحول، ولا يقع التفريق بين عبارات تضعيف القراءة، أو ردها، وبين التصريح بذلك، ثم العمل على تأويلها بما يردها إلى القياس المطرد، وعبارات وصفها بالقلة أو الندرة أو الشذوذ، فإن رد القراءة قد يقع بشتى أساليب التعبير، ومن الظاهر في عمل البصريين أنهم لم يكونوا يأخذون إلا بالقراءة التي توافق الاطراد والقياس، في الوقت الذي يعمدون فيه إلى تأويل ما يخالف القياس منها على وجوه توافق الاطراد، وربما عمدوا إلى تسميته تحت واحد من هذه المصطلحات: القلة أو الندرة، أو الشذوذ، او الضعف، أو أنهم يعدونه لغة، وقد كان الأخفش الأوسط يرى ما يرى الكوفيون في غالب ما رأوا، وهو هنا، يكون قد عدل بقلة، أو بكثرة عن منهج البصرة في القياس على الشائع الكثير، وذهب مذهب الكوفيين في تجويز الأخذ على القليل والنادر.

---

[48] المدارس النحوية ص19.

والبصريون في الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف كانوا لا يرون الأخذ به، ولا يأتمون به في استشهادهم لقواعدهم، قيل:

- **لأنه روي بالمعنى، فإن الحديث لم يدون إلا في القرن الثاني من الهجرة، وشاركت في تناقل نصوصه أعاجم كثيرة، فبدا منطقيا طبيعيا أن لا يقع الاحتجاج بلفظه، ومجاري إعرابه، وسنن تراكيبه، وذهب مذهبهم هذا نحويو الكوفة[49]، قال أبو حيان رادا على ابن مالك احتجاجه بالحديث: «قد أكثر هذا المصنف من الاستدلال بما وقع في الأحاديث على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب، وما رأيت أحدا من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره، على أن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرين للأحكام من لسان العرب: كأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائي، والفراء، وعلي بن المبارك الأحمر، وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس»[50].**

وقد كشف جلال الدين السيوطي عن الداعي إلى عدم الاحتجاج بالأحاديث النبوية، فقال: «أما كلامه –صلى الله عليه وسلم– فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروي، وذلك نادر جدا، إنما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضا، فإن غالب الأحاديث مروي بالمعنى، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها، فرووها بما أدت إليه عبارتهم، فزادوا ونقصوا، وقدموا وأخروا، وأبدلوا ألفاظا بألفاظ،

---

[49] المدارس النحوية ص19.

[50] الاقتراح في علم أصول النحو ص 29،30.

ولهذا ترى الحديث الواحد عن القصة الواحدة مرويا على أوجه شتى بعبارات مختلفة»[51]

ولو أن نحاة البصرة لم يأبوا الاستشهاد بالحديث بصورة مطلقة، فلقد استشهدوا بنصوص حديثية ولو على قلة، فسيبويه –وهو إمام النحويين البصريين– يأخذ في كتابه بثمانية أحاديث[52]، نبه عليها الأستاذ عبد السلام هارون في تحقيقه، كما قد انتهى بعض الدارسين المحدثين إلى أن سيبويه أخذ في كتابه بما يزيد على هذا، وإن لم نر له تصريحا بأنه حديث، بل كان يجتزئ بعض العبارات منه، ومن هنا، فالباحث في كتب البصريين التالين لسيبويه يقف ضرورة على استشهاد بالحديث، وربما كان كلام أبي حيان وغيره يريد به إلى أن نحاة البصرة لم يعتبروا الحديث النبوي مرجعا أساسا من مراجع عملهم التقعيدي، ولم يؤسسوا عليه قانونا نحويا، وإن لم يكن هناك مانع من الاحتجاج به هنا، أو هناك.

وعلى تمسك البصريين بالقياس، وتوسعهم فيه إلى مدى بعيد، على معنى بناء القاعدة على الاطراد الذي هو الغالب والعام، فهم، أيضا، توسعوا في التعليل النحوي، فقد كانوا يطلبون لكل ظاهرة ما يعللها، وقد لا يقفون عند العلة الأولى، و يتجاوزونها إلى العلة الثانية والثالثة، ومن هذا أنهم يرون في علة نصب (زيدا) في قولهم: (إنَّ زيدًا قائم): بأنه منصوب بـ (إنَّ)، وهذه العلة الأولى هي العلة التعليمية، وبها يُتعلم كلام العرب، ثم يرون في علة نصب (زيدا) بـ (إنَّ): إن (إن) مشبهة بالفعل المتعدي، فحُملت عليه، فمنصوبها يشبه المفعول به لفظا، ومرفوعها مشبه بالفاعل لفظا، وهي شبيهة بالفعل الذي قدم مفعوله على فاعله، وتسمى هذه العلة الثانية بالعلة

---

[51] الاقتراح في أصول النحو ص30.

[52] الكتاب 74/1، 327-2/ 32، 80، 393-3/ 268-116/4.

القياسية، ثم يسألون: ولِمَ شُبهت (إنَّ) الفعل؟ وسموا لاحقا هذه العلل بالعلل الجدلية النظرية، وعليها دار التعليل النحوي كله [53].

و سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي عن هذه العلل، فقيل له: عن العرب أخذتَها أم اخترعتها من نفسك، فقال: «إنَّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإنْ لم ينقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه، فإن أكن أصبت العلة، فهو الذي التمست، وإن لم تكن هناك علة له، فمَثَلي في ذلك مثَل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هكذا لعلة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون على لذلك فغن سنح لغيري على لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها».

وعقب الزِجاجي على هذا الكلام فقال: «وهذا كلام مستقيم، وإنصاف من الخليل –رحمة الله عليه»[54].

وهنا نجد الخليل قد وسع في باب التعليل، وترك باب العلل مفتوحا لكل مريدها حسبما يبدو له، ولا يكتفي بما بلغه عمن تقدمه؛ لأن العلل هي محل لكثير من النظر والجدل والخلاف، أما المنقول عن العرب من نصوص فإنه لا يقبل الاجتهاد، وهو ما جعلنا نرى غير قليل من نحويي المتأخرين، وخاصة نحاة بغداد، ومتقدمي نحويي الأندلس ومصر والشام قد ذهبوا في هذه العلل كل مذهب دعا رجلا كابن

---

[53] راجع: الإيضاح في علل النحو الزجاجي ص64،65،66.

[54] الإيضاح في علل النحو للزجاجي ص 65،66.

مضاء القرطبي يعلن الثورة عليهم، وينكر القول بالعلل الثواني والثوالث، ولا يؤمن إلا بالعلل الأولى التي بها يُتَعلم كلام العرب.

ومما أصله البصريون لعملهم وجوب تقديم السماع على القياس إذا هما تعارضا، يقول ابن جني: «إذا تعارضا نطقتَ على ما جاء عليه، ولم تقسه في غيره، وذلك نحو قوله الله تعالى: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَان»[55]، فهذا ليس بقياس لكنه لا بد من قبوله، لأنك إنما تنطق بلغتهم وتحتذي في جميع ذلك أمثلتهم»[56].

وههنا محا خلاف بينهم وبين الكوفيين، ونرى في قول ابن جني أن البصريين كانوا أكثر أخذا بالسماع، وقد أسس الدكتور على النجدي ناصف على هذا، أي أنهم يقدمون السماع على القياس، وخلص من رأي الكوفيين في عدم جواز تقديم الخبر على المبتدأ أنهم يرون تقديم القياس على السماع، لاقتضاء القياس أن يعود الضمير على متقدم.

ونظر الدكتور إبراهيم انيس في هذا وقال: «فإذا تساءلنا أي المدرستين كان اتجاهها أميل إلى القياس، وجب أن نقرر أن المدرسة البصرية هي التي كانت أميل إلى القياس، لا كما يقال لنا: إنَّ الكوفيين هم الذين كانوا اميل إلى القياس، فكثير من الدارسين يظنون أن الكوفيين لأنهم وضعوا الأحكام في بعض الأحيان على الشاهد الواحد فهم لهذا أميل إلى القياس.

والحقيقة أن الكوفيين إن صح أنهم قاموا بهذا، لم يكن هذا المسلك منهم نوعا من القياس ولا شيئا من القياس، وإنما هو مظهر اعتزازهم بالنص، وعدم التفريط في هذا النص الموروث.

---

[55] المجادلة:19.

[56] الخصائص 117/1.

بِمَ نسمي إذن موقفهم؟ إنه في رأيي أقرب إلى السماع منه إلى القياس، لأنهم يعتزون بما سمعوا، ويستمسكون به، لا ليضعوا له قاعدة عامة، ولكن ليحولوا بين من يقول إن هذا النص ضعيف، أو شاذ، وغير ذلك من النعوت التي خلعها البصريون على نصوص اللغة.

ثم يقدم الدكتور إبراهيم أنيس مثالا يظهر فيه اتجاه كل من الفريقين، وهو أن نحاة البصرة لما رأوا (فَعْلا) يجمع على (فُعُول) في شواهد جمة مما روي عن الفصحاء بنوا القانون على هذا الأساس، وقضوا على ما جاء مجموعا على (أفعال) بالشذوذ، ومن هنا فجمع (حَمْل) على (أحمال) في قوله تعالى: «وأولاتُ الأحمالِ أجَلَهُنَّ انْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ»[57] شاذ لا يقاس عليه، في حين لم ير نحاة الكوفة شذوذه. ويخلص الدكتور إبراهيم أنيس من وراء هذا إلى إبراز حسنة خلاف كهذا، فيقول: «وثمرة الخلاف بين المدرستين قد تظهر في أمرين:

1.أن الكوفيين أكثر احتراما للنص القديم، لا يصفونه بالنعوت المألوفة لدى البصريين، حين يكون قليلا أو نادرا.

2.إذا لم يرد للظاهرة اللغوية إلا شاهد واحد أو شاهدان كان البصريون لا يأبهون له، ولا يرونه مما يستحق أن توضع له قاعدة، في حين أن الكوفيين كانوا يرون وضع القاعدة لها الشاهد المنفرد».

ومضى يقرر أن المدرستين متفقتان في بناء القانون على المرويات الكثيرة، ولو خالفتها أمثلة قليلة أو نادرة[58]. والحقيقة أن ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس من تسليم مدرسة الكوفة للشواهد الواردة أخذهم بالقياس على كل ظاهرة لغوية موصوفة بالقلة، أو الكثرة لا يبعد عما هو موجود لدى الباحثين في القديم والحديث،

---

[57] الطلاق:4.

[58] من أسرار اللغة ص24-26.

وإن كان موقفه مبنيا على نظره من جهة تمسكهم بالسماع، والأخذ به، وترك تسمية ما قل منه شاذا، فاعتبرهم سماعيين، ومن جاء نظره من جهة تعدد القياس على الشاهد أو الشاهدين وبناء القاعدة على ذلك اعتبرهم قياسيين، والأمر نفسه مع مدرسة البصرة، فالناظر من زاوية منهجهم في استقراء الشواهد المنقولة عن الفضحاء، واستنباط القاعدة من الكثير الغالب رأى أنهم أدنى إلى السماع، والناظر من زاوية تمسكهم باطراد القانون وسلامة القياس، وتركهم لما حاد عن ذلك معتبرين إياه شاذا أو نادرا، أو قليلا اعتبرهم أقرب إلى القياس، وعلى هذا يتعذر الحكم بأن أحد الفريقين أكثر أخذا بالنص المنقول، فإن الفرقين جميعا أقاموا منظومة القوانين النحوية على المنقول من الكلام العربي الفصيح.

وتأسيسا على هذا يمكن المضي إلى تلخيص منهج المدرستين في مايلي:

1. التثبت من نقل اللغة المروية عن الفصحاء، فلم يقع النقل إلا عن القبائل العربية الموغلة في أعماق الصحراء، أي القبائل التي لم تخالط العجم.

2. الإيمان بوجوب اطراد القاعدة، وأن يكون القياس قياسا سليما.

3. بناء القوانين النحوية الغالب الكثير في الكلام العربي الفصيح، واعتبار ما كان دون ذلك شاذا أو قليلا أو نادرا أو لغة.

4. أخذهم بالقرآن الكريم، وبوجوه القراءات فيه عند صياغة القوانين، وأما ما روي من القراءة مخالفا للقياس فعمدوا إلى أن يؤولوه على وجوه من التأويل ترجع به إلى القياس.

5. عزوفهم عن الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف إلا في مستوى بسيط جدا، فقد رأوا أن الحديث الشريف روي بالمعنى دون اللفظ في غالب حاله، وأن غالب رواته والمشتغلين بنقله كانوا أعاجم ومولدين كما أن تدوين الحديث لم يقع إلا بعد

منتصف القرن الثاني من الهجرة. وهو ما قلل الاطمئنان إلى الحديث في أحكام اللسان العربي.

6. الاهتمام بالتعليل النحوي، ما جعلهم حريصين على التماس علة لكل ظاهرة لغوية، ولم يكتفوا بالعلل الأولى، وتجاوزها إلى العلل الثواني والثوالث، وهم أيضا لم يكتفوا بالمأثور عن العرب، وراحوا يتوسعون يجتهدون في طلب العلل النحوية.

- نحاة البصرة

تطرقنا من قبل إلى أن مدرسة البصرة هي مؤسسة النحو العربي، وأن أبا الأسود الدؤلي هو مؤسسه لدى غالب مؤرخي النحو العربي، وقد رجح بعضهم أن يكون سيدنا علي–كرم الله وجهه، هو البادئ بالكلام في النحو، وأنه من أمر أبا الأسود ووجهه إلى أن يكمل ما استأنفه، ثم أخذ عن أبي الأسود جمع من النحاة الأولين، وهم في غالبهم قراء القرآن الكريم، وههنا عرض لأوائل النحويين في البصرة ساعين إلى إظهار جهودهم في بناء هذا العلم.

1–أبو الأسود الدؤلي: اسمه: هو ظالم بن عمرو بن سليمان بن عمرو بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن كنانة، سكن البصرة، وصحب عليًّا – رضي الله عنه، وكان من أتباعه، وفي ذلك يقول:

يقول الأرذلون بنو قشيرٍ***طول الدهر لا تنسى عليًّا

أحب محمدا حبًّا شديدًا***وعباسًا وحمزةَ والوصيًّا

فإنْ يكُ حبُّهم مرَشَدًا***ولستُ بمخطيء إنْ كان غيًّا

وكان نازلا في بني قشير بالبصرة. وقد أخذ عنه جماعة منهم: يحي بن يعمر، وميمون الأقرن، وعنبسة بن معدان الفيل، ويقال: إن نصر بن عاصم أخذ عن أبي الأسود[59].

قال الأستاذ علي النجدي ناصف: «ولسنا نعرف من نحوهم شيئا، ولا نجد لهم ذكرا في كتاب سيبويه، ولا عنهم رواية فيه»[60]. وكان من أفصح الناس، قال قتادة بن دعامة السدوسي: «قال أبو الأسود الديلي: إني لأجد للحن غَمَرًا كغَمَرِ اللحم»[61].

وكان فطنا سريع الجواب، فلما قال –فيما قال– يرد على بني قشير إنكارهم عليه آل البيت:

فإنْ يكُ حبهم رشدا أصبه*ولست بمخطئ إن كان غيًّا**

قالت له بنو قشير: شككت يا أبا الأسود في قولك: (فإنْ يك حبهم)، فقال أما سمعتهم قول الله –عز وجل: «وإنا أو إياكم لعلى هُدى أو في ضلالٍ مبين»[62]

وإليه ينسب كثير من الرواة وضع النحو، كما أنه أول من ضبط المصحف، حيث نقطة نقط إعراب، وقد وردت عنه بعض القراءات، فقد قرأ: «ألا إنَّهم تَثْنَوْنِي صدورُهم»[63] –بتاء مفتوحة، وسمون الثاء، وفتح النون، وسكون الواو، وكسر النون–على (تَفْعَوْعِلُ)[64]، ورفع (صدورهم).

---

[59] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص 33،34،40.

[60] تاريخ النحو ص15.

[61] أخبار النحويين والبصريين للسيرافي ص36، غَمَر اللحم: ريحه، وما يعلق باليد من دسمه.

[62] سبأ: وانظر: إنباه الرواة للقفطي52/1.

[63] هود:5.

[64] المحتسب لابن جني 318/1،319.

كما قرأ: «قالتْ هَيْتِ لك»[65] –بفتح الهاء، وكسر التاء[66].

ومات أبو الأسود بالبصرة سنة تسع وستين للهجرة، وهو إبن خمس وثمانين سنة، في طاعون جارفن ويقال: مات قبل الطاعون سنة إثنتان وسبعين للهجرة[67].

2- نصر بن عاصم: اسمه: هو نصر بن عاصم بن أبي سعيد الليثي البصري المقرئ النحوي، أول العلماء في علم النحو، ونسب بعضهم إليه وضع النحو، وهو أول من أخذه عن أبي الأسود، وكان تابعيًّا، وروى عن عمرو بن دينار، قال: اجتمعت أنا والزهري ونصر بن عاصم، فتكلم نصر، فقال الزهري: إنه ليفلق بالعربية تفليقا.

وقد أخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس، وأخذ القراءة عنه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري[68]. وتذكر بعض كتب التراجم أن له كتابا في النحو، وهو من القراء، حيث نسبت إليه بعض القراءات، ومن ذلك: «قل هو اللهُ أحدُ اللهُ الصمد»[69] –بترك تنوين (أحد) عند الوصل[70].

ويقال: إنه أول من نقط المصحف نقط إعجام، لتمييز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض مثل الباء، والتاء، والثاء، والجيم، والحاء، والخاء.... إلخ، وذلك

---

[65] يوسف:23.

[66] المحتسب 338/1.

[67] إنباه الرواة 55/1.

[68] اخبار النحويين البصريين ص39، وإنباه الرواة 343/3،344.

[69] الإخلاص:1،2.

[70] تاريخ العلماء النحويين للتنوخي المعري ص158-159.

بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي[71]، ومات نصر بن عاصم سنة تسع وثمانين للهجرة [72].

3-عنبسة الفيل: اسمه: هو عنبسة بن معدان الفيل المهري، ولقب بالفيل، لأن أباه كان يروض فيلا للحجاج، فغلب عليه اللقب، ثم انتقل منه إليه، ولم نقف على تاريخ وفاته إلا أننا نعرف أنه عاصر الفرزدق، فلعل وفاته كانت حول المائة الأولى من الهجرة[73].

ويعده القفطي من نحاة الطبقة الثالثة، لأنه يروي عن أبي الأسود، وأبو الأسود عن علي –كرم الله وجهه، ويضم إلى هذه الطبقة ممن أخذوا عن أبي الأسود ميمون المعروف بالأقرن، وعطاء بن أبي الأسود، وأبو نوفل بن أبي عقرب، ويحي بن يعمر، وقتادة بن دعامة السدوسي، وعبد الرحمن بن هرمز، فكل هؤلاء اخذوا عن أبي الأسود، وتفاوتت مقاديرهم في العلم بهذا النوع من العربية[74]. وعدَّ القفطي هؤلاء من الطبقة الثالثة مبني على ما رجحه من أن عليًّا –كرم الله وجهه- هو الواضع الأول لعلم النحو، ثم أخذ عنه أبو الأسود ممثلا للطبقة الثانية، ثم هؤلاء يمثلون الطبقة الثالثة.

وقد صنفهم الشيخ محمد الطنطاوي في الطبقة الأولى على الرغم من أخذهم عن أبي الأسود[75]، ولعله لا يعد أبا الأسود صاحب الطبقة الأولى؛ لأنه هو واضع

---

[71] التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري ص10، والمدارس النحوية ص16،17.

[72] بغية الوعاة 2/313،314.

[73] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص41،42، ونشأة النحو للشيخ الطنطاوي ص 41،42.

[74] إنباه الرواة 2/381،382.

[75] نشأة النحو ص41،42.

النحو كما يرجح، والظاهر أن هؤلاء يمثلون الطبقة الثالثة اتباعا للقفطي باعتبارهم آخذين عن أبي الأسود الذي أخذ عن علي – كرم الله وجهه-

4-ميمون الأقرن: وهو ممن أخذوا عن أبي الأسود، وكان يقال: إن أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي، ثم ميمون الأقرن، ثم عنبسة الفيل، ثم عبد الله بن أبي إسحاق، وعبد الله بن أبي إسحاق ليس من هذه الطبقة إلا أنه أدرك آخر عصرهم[76].

وذكر السيوطي أنه أخذ النحو عن عنبسة، وقيل: عن أبي الأسود، وأن عنبسة أخ عنه[77].

ولم تذكر كتب التراجم تاريخ وفاته.

عطاء بن أبي الأسود: هو عطاء بن أبي الأسود الدؤلي، عالم بالنحو والعربية، وهو الذي اتفق بعد موت أبيه هو ويحي بن يعمر على بسط النحو، وتعيين أبوابه، وبعج مقاييسه، ولما تولى أبوه البصرة من قِبل علي وابن عباس –رضي الله عنهم- كان على شرط أبيه ولم يعقب، ولما استوفى هو ويحي بن يعمر جزءا متوفرا من أبواب النحو نسب بعض الرواة إليهما أنهما أول من وضع النحو، وتوفي سنة مائة وتسع للهجرة[78].

---

[76] إنباه الرواة /337،338.

[77] بغية الوعاة 309/2.

[78] إنباه الرواة 380/2،381.

6- عبد الرحمن بن هرمز: هو عبد الرحمن بن هرمز بن أبي سعد المدني المقرئ النحوي: أبو داود الأعرج، قال أهل العلم: إنه أول من وضع علم العربية، وهو مدني تابعي، أخذ عنه نافع بن أبي نعيم القراءة في جماعة من أهل المدينة، وكان أخذ القراءة عن عبد الله بن العباس –رضي الله عنهما، وأبي هريرة، ومات بالإسكندرية، ودفن بها سنة مائة وسبع عشرة للهجرة[79].

وقد مر بنا أنه من الذين نسب إليهم وضع النحو، كما نسب وضعه إلى أبي الأسود، وإلى نصر بن عاصم[80].

وهو من القراء، ومن قراءاته: «صِراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم»[81] –بضم الهاء، وبضم الميم مشبعة[82].

ومن قراءاته أيضا: «لَمَّا آتيناكم مِنْ كِتابٍ وحكمة»[83] –بفتح اللام وتشديد الميم في (لما)، وبالنون وألف بعدها في (آتيناكم)[84].

---

[79] إنباه الرواة 172/2،173، وبغية الوعاة91/2.

[80] راجع: أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص40.

[81] الفاتحة:7

[82] المحتسب لابن جني 44/1.

[83] آل عمران:18.

[84] المحتسب164/1.

7-يحي بن يعمر التابعي: وهو رجل من عدوان بن قيس بن عيلان بن مضر، وكان عداده في بني ليث من كنانة، وكان مأمونا عالما، قد روى عنه الحديث، ولقي ابن عمر وابن عباس وغيرهما، وسمع عن جابر وأبي هريرة، وأخذ النحو عن أبي الأسود وروى عنه قتادة وغيره. ويروى أن الحجاج بن يوسف سأل يحي بن يعمر: أتجدني ألحن، قال الأمير أفصح من ذلك، قال: عزمتُ عليك لتخبرني، وكانوا يعظمون عزائم الأمور، فقال يحي: نعم، في كتاب الله، فقال الحجاج: في أي شيء من كتاب الله، قال: قرأت: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله»[85]، فترفع(أحب)، وهو منصوب، قال: إذًا لا تسمعني ألحن بعدها، فنفاه إلى خراسان.

وتوفي يحي سنة مائة وتسع وعشرين للهجرة[86].

وهو أيضا من القراء، ومن قراءاته: «اشتروِا الضلالةَ»[87] -بكسر الواو وصلا[88]، وقوله تعالى: «تمامًا على الذي أحسنُ»[89] -بالرفع[90].

فهؤلاء أوائل نحاة البصرة الذين أخذوا عن أبي الأسود، فأسهموا في تأسيس صرح النحو، وهم جميعا من قراء القرآن الكريم، وقد رويت عنهم قراءات كثيرة تناقلتها كتب الشواذ، وكتب التفسير.

---

[85] التوبة:24.

[86] اخبار النحويين البصريين ص40،41.

[87] البقرة: 16.

[88] المحتسب 54/1.

[89] الأنعام: 154.

[90] المحتسب 234/1.

وقد ذكرنا أن بعض المترجمين عدهم من الطبقة الأولى، وعد بعضهم تلاميذ أبي الأسود الطبقة الثالثة بناء على أن سيدنا عليًّا –كرم الله وجهه– يمثل الطبقة الأولى، وأن أبا الأسود يمثل الطبقة الثانية.

- **الطبقة الثانية من نحاة البصرة**

وهنا نتعرض إلى طبقة ثانية من النحاة الذين تلوا الذين ذكرناهم من الصدر الأول من النحاة، وهذه الطبقة تعد المؤسسة الحقيقية للنحو، قال الدكتور/شوقي ضيف: «يعد ابن أبي إسحاق الحضرمي أول النحاة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ويتبعه في هذه الأولية المبكرة جيل من تلاميذه في مقدمتهم: عيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب»[91].

وهنا نتحدث عن كل واحد منهم بما يبرز جهوده في بناء صرح النحو العربي.

1–عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي: قال ابن سلام عنه: «ثم كان من بعدهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وكان أول من بعج النحو، ومد القياس والعلل»[92].

وقد أخذ عن يحي بن يعمر، ونصر بن عاصم، وهو إلى جانب تفريعه للنحو، وإعمال القياس فيه درس الهمز، وله فيه كتاب، وقد عاصره عيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمرو بن العلاء، لكنه مات قبلهما، ويقال: إن ابن أبي إسحاق كان أشد تجريدا للقياس، وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب، ولغاتها، وغريبها، وقد جمع بينهما بلال بن أبي بردة، وهو حينئذ عامل على البصرة من قِبل خالد بن عبد الله القسري أيام هشام، فقال أبو عمرو بن العلاء : فغلبني ابن أبي إسحاق يومئذ بالهمز،

---

[91] المدراس لنحوية ص 22.

[92] طبقات فحول الشعراء ص13، وما بعدها.

فنظرت فيه بعد ذاك، وبالغت فيه، وسئل يونس بن حبيب عن ابن أبي إسحاق وعلمه، فقال: هو والنحو سواء، أي: هو الغاية.

وكان يكثر الرد على الفرزدق، والتعنت له، فلما قال الفرزدق في قصيدة يمدح فيها يزيد ابن عبد الملك:

مستقبلين شمالَ الشام تضربُنا حاصبٍ كنديفِ القطن منثورِ

على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحفَ تُزجى مخها ريرُ

فألح عليه ابن أبي إسحاق وعابه بخفض البيت الأول ورفع البيت الثاني، فغيره الفرزدق فقال:

على زواحفَ تزجيها محاسيرِ

ويعتبره ابن سلام المؤسس الحقيقي لعلم النحو؛ فيجعله أول من صاغ قوانينه، وأول من أوجب طرد القياس فيها، فيحمل غير المسموع على المسموع، ونقلوا: "أن يونس بن حبيب سأله عن كلمة (السويق)، وهو الناعم من دقيق الحنطة، هل ينطقها أحد من العرب (الصويق) بالصاد؟ فأجابه نعم قبيلة عمرو بن تميم تقولها، ثم قال له: وما تريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس"، وهو لم يهتم بالقياس على القواعد المطردة فحسب، بل امتد اهتمامه أيضا إلى التعليل للقواعد تعليلا يمكن لها في عقول المتعلمين، وقد تمسك تمسكا شديدا بتلك القوانين المعللة، ودعا إلى القياس عليها قياسا دقيقا بحيث منع الخروج عليها، وخطأ كل من ينحرف في كلامه عنها، وقد تقدم مثال لتخطئته الفرزدق.

وكان ابن أبي إسحاق قارئا من قراء القرآن الكريم، وقد رويت له وجوه وحروف من القراءات كثيرة، ولم يكن يرى بأسا في الخروج عن جمهور القراء في بعض الحروف تمسكا بالقياس النحوي:

- **ومن ذلك قراءته بنصب (السارق والسارقة) في قول تعالى: «والسارقَ والسارقةَ فاقطعوا أيديهما»[93]، في مقابل قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء[94]، وكأنه رأى النصب أقيس من الرفع؛ لأن الرفع يقتضي الإخبار بالجملة الطلبية، وهو قليل، ولذلك رجح النحاة في مثل هذا النصب على الاشتغال.**
- **ومن قراءاته أيضا: «فاجمِعوا أمركم وشركاؤكم»[95] -بكسر الميم، وقطع الهمزة في (أجمعوا)، ورفع (شركاؤكم)[96].**

ولم يعرف له كتاب في النحو، وإن أوردت بعض كتب التراجم أن له كتابا في الهمز، ويظهر أنه بحث فيه رسم الهمزة في الوصل، وفي القطع، في التسهيل، وحين تدخل على همزة أخرى وحين تتصل بحروف العلة.

وتوفي سنة مائة وسبع عشرة للهجرة [97].

---

[93] المائدة: 38.

[94] انظر: تفسير البحر المحيط 493/3.

[95] يونس: 71.

[96] المحتسب 314/1.

[97] راجع ترجمته في: أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص42-44، ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص12، وإنباه الرواة للقفطي 104/2-108، والمدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف 23-25، وتاريخ النحو للأستاذ علي النجدي ناصف ص15.

2-عيسى بن عمر الثقفي: وهو من طبقة أبي عمرو بن العلاء البصري، وليس بعيسى بن عمر الهمداني الكوفي، من موالي آل خالد بن الوليد، نزل في ثقيف، فنسب إليهم، إمام في النحو والعربية والقراءة، مشهور، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق، وروى عن الحسن البصري، والعجاج بن رؤبة، وجماعة، وعنه روى الأصمعي وغيره، وعنه أخذ الخليل بن أحمد، وله كتابان في النحو: سمى أحدهما: (الجامع)، والآخر: (الإكمال)، وفيهما يقول تلميذه الخليل:

بَطَلَ النحو جميعًا كلُّه*غير ما أحدث عيسى بن عُمَرْ**

ذاك إكمالٌ، وهذا جامعٌ*فهما للناسِ شمسٌ وقَمَرْ**

قال السيرافي: «وهذان الكتابان ما وقعا إلينا، ولا رأيت أحدا يذكر أنه رآهما»، ويقال: إن له نيفا وسبعين مصنفا ذهبت كلها.

وكان عيسى بن عمر شديد التمسك بالقياس كأستاذه ابن أبي إسحاق، كما كان غيره من نحاة البصرة يقيس على الأغلب الأعم في اللغة، ويعد ما خالف ذلك لغات، قال محمد بن سليمان لعيسى يوما: أخبرني عن هذا الذي وضعت، أيدخل فيه كلام العرب كله؟ قال: لا، قال: فمن تكلم بخلافك، واحتذى ما كانت العرب تتكلم به، تراه مخطئا؟ قال: لا، فقال: فما ينفع كتابك؟

وكان عيسى بن عمر فصيحا، ويروى عنه أشياء كثيرة من القراءات[98].

- **فمن قراءاته: «حتى إذا أخذتْ الأرضُ زُخرفها وأزْيَنَتْ»[99] -بقطع الهمزة، وسكون الزاي، وتخفيف الياء[100].**

---

[98] أخبار النحويين البصريين 49،50، وإنباه الرواة للقفطي 2/ 374-377، وبغية الوعاة 2/237،238.

[99] يونس:24.

[100] المحتسب لابن جني 1/311.

- **ومن قراءاته أيضا: «هؤلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرَ لَكُم»[101] -بنصب (أطهر)[102].**

ومن آرائه النحوية ما حكاه سيبويه من أنه كان يقيس نصب (مطرا) في قول الأحوص:

سلامُ اللهِ، يا مطرًا، عليها*وليس عليك، يا مطرُ، السلامُ**

على نصب (رجلا) في قولهم: (يا رجلا)، فجعله كالنكرة غير المقصودة، قال سيبويه معقبا على ذلك: (ولم نسمع عربيا يقوله، وله وجه من القياس إذا نون وطال كالنكرة)[103]

توفي عيسى بن عمر سنة مائة وتسع وأربعين للهجرة قبل أبي عمرو بن العلاء بخمس أو ست سنوات، وقيل: سنة مائة وخمس وأربعين للهجرة[104]، وذلك بعد أن خلف مادة نحوية هيأت لتلاميذه من بعده، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد تشييد صرح النحو.

3-أبو عمرو بن العلاء: هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني النحوي المقرئ، أحد القراء السبعة المشهورين.

وقد اختلفوا في اسمه على واحد وعشرين قولا ذكرها السيوطي، أصحها عنده: (زبان)، وقيل: لا اسم له غير أبي عمرو، وذكر المبرد انه من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، فهو حينئذ عربي خالص. أخذ أبو عمرو عن جماعة من

---

[101] هود: 78.

[102] المحتسب 325/1.

[103] الكتاب203/2.

[104] إنباه الرواة 374/2-377، وبغية الوعاة للسيوطي238/2.

النابغين، وقرأ القرآن على سعيد بن جبير، ومجاهد، وروى عن أنس بن مالك، وأبي صالح السمان، وعطاء وطائفة.

وقد قرأ عليه اليزيدي، وعبد الله المبارك، وخلق كثير، وأخذ عنه الأدب وغيره أبو عبيدة والأصمعي، وخلق. وكان مقدما في القراءة، وهو من أئمة القراءات السبع المتواترة، قال سفيان بن عيينة: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقلت: يا رسول الله قد اختلفت عليَّ القراءات، فقراءة مَنْ تأمرني؟ فقال: بقراءة ابي عمرو بن العلاء.

كما عرف أبو عمرو في عصره بنبوغه في اللغة والنحو والأدب والرواية عن العرب، نقل عنه الأصمعي قوله: لقد علمت من النحو ما لم يعلمه الأعمش، وما لو كتب لما استطاع أن يحمله. وقال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن ألف مسألة، فأجابني منها بألف حجة، وقال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب، والعربية، وبالقرآن والشعر، وكان رأسًا في حياة الحسن بن أبي الحسن البصري مقدمًا في عصره، وكانت داره خلف دار جعفر بن سليمان.

كانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تغير، فأحرقها كلها، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية، قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى: «فَعَزَّزنا بثالثٍ»[105] –مثقلة، فقال: شددنا.

وقد توفي أبو عمرو سنة مائة وأربع وخمسين للهجرة، وقيل: سنة مائة وتسع وخمسين للهجرة[106]. وقد عده الشيخ محمد الطنطاوي ثالث نحوي من نحاة الطبقة

---

[105] يس:13.

[106] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص46، وإنباه الرواة للقفطي 4/ 131–139، وبغية الوعاة 2/231،232.

الثانية التي تبدأ بعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، ثم عيسى بن عمر الثقفي، وقد رجح ما صححه ياقوت من أن إسمه (زبان)، لما روى أن الفرزدق جاء معتذرا إليه من هجوٍ بلغه عنه، فقال له أبو عمرو:

هجوتَ زبَّانَ ثم جئت معتذرًا*من هجو زبَّانَ لم تَهْجُ ولم تَدْعِ**

فاعتذر إليه الفرزدق، ومدحه بمقطوعة منها قوله:

ما زلت أفتح أبوابًا، وأغلقها*حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمَّارِ**

وقد أخذ أبو عمرو النحو عن نصر بن عاصم وغيره، واشتهر بالقراءات، والعربية، وأيام العرب، ولهجات القبائل. وقد روي أن عيسى بن عمر الثقفي جاءه متعجبا من تجويزه رفع (المسك) في قولهم: (ليس الطيبُ إلا المسكُ)، فقال له أبو عمرو: نمت يا أبا عمرو وأدلج الناس، ليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع، ثم أرسل اليزيدي وخلفا الأحمر لتثبت من العرب، فكان كما أخبر أبو عمرو بن العلاء، فأخرج عيسى خاتمه من يده، وقال: ولك الخاتم، بها والله فقتَ الناس[107].

فهذه الرواية تعبر عن تميز أبي عمرو بن العلاء على سواه في المعرفة بلغات العرب ولهجاتها، فوق تميزه في النحو، إلا أن تميزه في اللغة واللهجات العربية، وأيامها وأشعارها كان أظهر تفوقه في النحو، فلم يكن النحو غالبا عليه، وهو ما قد يفسر أن سيبويه لم يرو عنه، ولا عن تلاميذه شيئا ذا بال في النحو. وإن كان روى عنه بعض الشواهد اللغوية، ولم يأخذها عنه مباشرة، إنما نقلها عن تلميذه يونس بن حبيب، وكأنه لم يلقه ولم يجلس إليه[108].

---

[107] نشأة النحو، للشيخ محمد الطنطاوي: 44،45.

[108] المدارس النحوية ص27.

ويعبر منهج أبي عمرو في بناء القواعد عن نظرية المدرسة البصرية في التقعيد والأخذ بالأغلب الأعم من كلام العرب، وقد يدل على هذا أن بعضهم قال له: أخبرني عما وضعت مما سميته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقال له: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة، قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات.

وقد جاء في كتب النحو آراء نادرة تنسب إلى أبي عمرو، منها ما رأى من أن المنصوب بعد (حبذا) في نحو قولهم: (حبذا محمد رجلا) تمييز مطلقا[109].

وجاء عند د. شوقي ضيف نقلا عن المغني أن أبا عمرو يرى أن المنصوب بعد (حبذا) حال لا تمييز[110]، وعند ابن هشام في المغني ما يخالف ذلك.

ومن ذلك أيضا منعه صرف كلمة (سبأ) في قوله تعالى: «وجئتكَ مِنْ سبإٍ بنبأٍ يقين»[111]، فقد قرأ بعدم تنوينها مجرورة بالفتحة[112]، على جعلها اسما للأرض، أو للمدينة، أو للقبيلة.

وكان أبو عمرو يجيز رفع (المسك) في قولهم: (ليس الطيبُ إلا المسكُ)؛ وذلك اتباعا للغة تميم، حيث يحملون (ليس) التي انتفض نفيها بـ (إلا) على (ما) في الإهمال[113].

ومر بنا آنفا ما دار بين عيسى بن عمر الثقفي الذي كان ينكر الرفع، وأبي عمرو بن العلاء الذي كان يجيزه من حوار حول هذه المسألة.

---

[109] مغني اللبيب 463/2.

[110] المدارس النحوية ص28.

[111] النمل: 22.

[112] حجة القراءات لأبي زرعة ص525.

[113] التذييل والتكميل لأبي حيا 300/3.

هذه آراء نحوية روتها كتب النحو عن أبي عمرو بن العلاء، ولا تدل قلتها أنه على قلة اهتمامه بالنحو، بل ربما يفسر هذا إحراقه ما وضع من الكتب، فضاعت آراؤه. كما قد يرجع ذلك أيضا إلى كون اشتغاله بالقراءات جعله يهتم بالنقل والرواية أكثر من عنايته بالاجتهاد والرأي.

- **الطبقة الثالثة من نحاة البصرة**

وفي هذا الجيل من النحاة البصريين سيطالعنا جمع ممن تعج بذكرهم كتب الطبقات، والتراجم التي تخص النحو واللغة، ومنهم: حماد بن سلمة بن دينار النحوي اللغوي، وتذكر كتب التراجم أنه كان إمامًا فاضلا قديم العهد، وقد أخذ عنه يونس بن حبيب، قيل ليونس: أيكما أسن، أنت أم حماد بن سلمة؟ قال: هو أسن مني، ومنه تعلمت العربية، وكانت رواية الحديث هي الغالبة على حماد، غير أنه كان أيضا معنيًّا بالنحو، وكان يرى أن تعلم النحو ضرورة لمن يشتغل بالحديث، وفي ذلك يقول: «مَثَلُ الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو مَثَلُ الحمار عليه مخلاة ولا شعير فيها»، وكان له حلقة يعلم فيها النحو، قال يونس بن حبيب: كان حماد رأس حلقتنا، ومنه تعلمت العربية[114].

ويقول د. شوقي ضيف إن كتب التراجم لم ترو له آراء نحوية، ولذلك لا يعده ضمن جماعة النحاة الأساسيين[115].

ولا يصح إخراجه من النحاة باعتبار عدم وجود أنظار نحوية له في كتب النحو، فليس هذا معيارا ضروريا لاهتمامه بالنحو، فهو في هذا كالنحاة المتقدمين الذين ذهبت أقوالهم. وجائز أن تكون له أقوال منسوبة إلى تلاميذه، ولا يستقيم إخراجه

---

[114] إنباه الرواة 1/ 364،365.

[115] المدارس النحوية ص22.

من النحاة، وقد نقل عنه أئمة منهم، مثل: يونس بن حبيب، وسيبويه، وتروي كتب الطبقات أن سيبويه سأله، فقال: أحدثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رُعِف في الصلاة ظ فقال حماد: أخطأت يا سيبويه، إنما هو: رَعَف، فانصرف سيبويه إلى الخليل شاكيًا ما لقيه من حماد، فقال الخليل: صدق حماد، أمثلة يُلقى بمثل هذا؟ وتوفي حماد سنة مائة وسبع وستين للهجرة[116].

ومهم الأخفش الأكبر: أبو الخطاب عبد الحميد عبد المجيد مولى قيس بن ثعلبة من أهل هجر، أول الأخافشة الثلاثة المشهورين، والثاني الأخفش الأوسط: أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه، والثالث الأخفش الصغير: علي بن سليمان.

أخذ الأخفش الأكبر عن أبي عمرو بن العلاء وطبقته، وأخذ عنه يونس بن حبيب وسيبويه، وهو من أئمة اللغة والنحو، وله ألفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب، وتوفي سنة مائة وسبع وسبعين للهجرة. يقول د. شوقي ضيف: «وليست له في النحو آراء موروثة، وقد أكثر سيبويه من الرواية عنه في كتابه»[117]. ومن هذه الطبقة يونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وهنا نورد لكل واحد منهما كلمة نظهر من خلالها جهوده في تطوير الدرس النحوي.

1-يونس بن حبيب: هو: أبو عبد الرحمن الضبي النحوي، مولى لهم، أي: لبني ضبة، وكان من أهل جَبُّل -بفتح الجيم، وضم الباء المشددة، وهو المكان الذي نشأ فيه.

ولد ما بين تسع وسبعين للهجرة، وخمس وتسعين، على خلاف بين الرواة، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وحماد بن أبي سلمة، وكان النحو أغلب عليه، قال

---

[116] إنباه الرواة1/364،365.

[117] المدارس النحوية ص22.

السيرافي عنه: «أما يونس بن حبيب فإنه بارع في النحو، من أصحاب أبي عمرو بن العلاء»[118]، وقد سمع من العرب كما سمع مَنْ قبله، وقد روى عنه سيبويه وأكثر، وله قياس في النحو، ومذاهب يتفرد بها، وقد سمع عنه الكسائي والفراء، وكانت حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم، وطلاب الأدب، وفصحاء الأعراب والبادية، رُوى أن رجلا سأل الكسائي بحضرة يونس بن حبيب: أي شيء يشبه (أي) من الكلام، فقال الكسائي: (ما)، و(مَنْ)، فقال له السائل: فكيف تقول: لأضربنَّ مَنْ في الدار؟ قال الكسائي: لأضربنَّ مَنْ في الدار، قال: فكيف تقول: لأركبنَّ ما تركب؟ قال: لأركبنَّ ما تركب، قال له: فكيف تقول: ضربت مَنْ في الدار؟ قال: ضربت مَنْ في الدار، قال: فكيف تقول: ركبت ما ركبت، قال: ركبتُ ما ركبتَ، قال: فكيف تقول: لأضربنَّ أيُّهم في الدار، قال: لأضربن أيُّهم في الدار، قال: فكيف تقول: ضربت أيُّهم في الدار؟ قال: لا يجوز ذلك، قال: لِمَ؟ قال: (أيٌّ) كذا خلقت، فغضب يونس، وقال: تؤذون جليسنا ومؤدب أمير المؤمنين. هذا الخبر يقطع بأن مجلس يونس بن حبيب كان مليئا بالعلماء، مليئا بالمناظرات، و أوردت كتب التراجم مصنفات له، وإن لم يصل إلينا منها شيء، ومنها: معاني القرآن، واللغات، والنوادر الكبير، والأمثال، والنوادر الصغير، وتوفي سنة مائة واثنتين وثمانين للهجرة، ما بين السبعين والثمانين من عمره[119].

وقد أكثر سيبويه من النقل عن يونس، حيث تردد اسمه كثيرا في كتابه، ولكن غالبا في شواهد اللغة لا في الآراء النحوية، وقد فسر د. شوقي ضيف ذلك بأن

---

[118] أخبار النحويين البصريين ص51،52.

[119] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص51،52، إنباه الرواة للقفطي 4/74-78.

سيبويه لم يكن يُعجب بآرائه، بل كان مغرمًا بآراء الخليل النحوية، ومن ثم كان يونس أمة وحده في نحوه وأقيسته التي تفرد بها[120].

وقد تناولت كتب النحو بعض الآراء النحوية التي خالف فيها يونس جمهور النحاة، ومن ذلك رأيه في حقيقة (أي) الواردة في قوله تعالى: «ثُمَّ لَنَنْزِعنَّ من كُلِّ شيعةٍ أيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتيًّا»[121]، فقد رأى سيبويه أن (أيهم) اسم موصول بمعنى (الذي) مبني على الضم في محل نصب مفعولا به للفعل: (لننزعن)، ورأى الخليل أنها اسم استفهام مرفوع على الابتداء، وخبره (أشد)، أما مفعول (لننزعن) فهو محذوف، والتقدير: (لننزِعنَّ من كل شيعة الفريق الذي يقال فيهم أيهم أشد)، أما يونس فقد وافق الخليل في كون (أيهم) اسم استفهام معربا مرفوعا على الابتداء، وخبره: (أشد)، إلا أنه يخالفه في مفعول (لننزعن)، فليس محذوفا عنده، بل هو جملة الاستفهام، وقد علق الفعل عن العمل في لفظها، وعمل في محلها النصب[122].

ومن آراء يونس النحوية ما نقله عنه سيبويه من جواز إلغاء (إذن) حين تقع بعد حرف عطف كالفاء أو الواو مثلا، ومن ثم يجوز في المضارع بعدها الرفع والنصب، وقد استحسن سيبويه رأي يونس، وهو إلغاؤه، قال سيبويه: «وهذا قول يونس، وهو حسن»[123] ومن آراء يونس التي استحسنها سيبويه تصغيره لكلمة (أَحْوَى) على (أُحَيّ) مانعا إياها من الصرف قياسا على (أحْمَر) وأمثالها، وقد فضل سيبويه هذا الرأي على رأي عيسى بن عمر، حيث صغرها على (أُحَيٌّ) –مع التنوين، وقد وصف سيبويه رأي عيسى هذا بالخطأ، كما فضل رأي يونس أيضا على رأي

---

[120] المدارس النحوية ص28.

[121] مريم:69.

[122] راجع مغني اللبيب 77/1.

[123] الكتاب 15/3.

أبي عمرو بن العلاء، حيث صغرها على (أُحَيّ)، وكأنه يعاملها معاملة المنقوص، مثل: (قاضٍ)، ووصف سيبويه رأي أبي عمرو بأنه مخالف للقياس، قال سيبويه: «وأما يونس فقوله: (هذا أحَيُّ) -كما ترى، وهو القياس والصواب»[124].

كما استحسن سيبويه ما ذهب إليه يونس من جواز دخول نوني التوكيد على الفعل المضارع المسبوق بأداة العرض أو التحضيض قياسا لهما على الاستفهام، قال سيبويه: «وزعم يونس أنك تقول: (هلا تقولنَّ)، و(ألا تقولنَّ)، وهذا أقرب لأنك تعرض، فكأنك قلت: (افعل)؛ لأنه استفهام فيه معنى العرض»[125].

إلى غير ذلك من الآراء التي استحسنها سيبويه فضلا عما نقله سيبويه، ولم يستحسنه.

ومما تفرد به يونس أنه كان يرى أن تاء(أخت)، و(بنت) ليست للتأنيث؛ لأن ما قبلها ساكن صحيح، ولأنها لا تبدل عند الوقف هاء[126].

ونحن هنا نرى أن أقوال يونس النحوية والصرفية التي تفرد بها موجودة في كتاب سيبويه، وما جاء بعده، وقد كان سيبويه معجبا ببعض آرائه، وأيدها على آراء غيره، وهو ما قد نرى معه أن نعيد النظر فيما ذكره د. شوقي ضيف من أن سيبويه لم يهتم بأقوال يونس في النحو لعدم تسليمه لها.

ومع أن يونس خالف الخليل وسيبويه في بعض الآراء، إلا أن ذلك لا يدعو إلى استبعاده من فريق النحاة الذين اجتهدوا في بناء الدرس النحوي، وقد بنى د. شوقي ضيف على تفرد يونس بطائفة من الآراء الصرفية والنحوية أن يكون يونس

---

[124] الكتاب 472/3، وراجع: يونس البصري: حياته وآثاره ومذاهبه للدكتور/أحمد مكي الأنصاري ص142.

[125] الكتاب 514/3، وراجع يونس البصري ص143.

[126] شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري 74/1.

خارجا عن تطور النحو العربي على صورة ما بلغه التطور الذي في الكتاب عن سيبويه مظهرا أن النحاة الذين يعدون حقا في تطور النحو: ابن إسحاق، وعيسى بن عمر، ثم الخليل بن أحمد، وسيبويه[127].

2-الخليل بن أحمد: هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري الأزدي: أبو الرحمن.

تلقى عن أبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي، وغيرهما، وروى عن أيوب وعاصم الأحول، وغيرهما.

وقد أخذ عنه سيبويه والأصمعي والنضر بن شميل، غير أن سيبويه أكثر من النقل عنه، وعامة الحكاية في كتابه عن الخليل، فكلما قال سيبويه: (وسألته)، أو: (قال) من غير أن يذكر قائله فهو الخليل[128]، حتى بلغ ما نقله عنه أكثر من خمسمائة نقل[129]، مما يدل على ملازمته إياه وكثرة أخذه عنه.

وكان الخليل خير ممثل لمنهج المدرسة البصرية في تحري الدقة فيما ينقله عن العرب، والبحث عن الموثوق بهم، فساح في بوادي الجزيرة العربية، وشافه الأعراب في الحجاز ونجد وتهامة إلى أن ملأ جعبته، ثم آب إلى مسقط رأسه: البصرة، واعتكف في داره دائبا على العلم ليله ونهاره، هائما بلذته الروحية، فنبغ في العربية نبوغا لم يسبق إليه، وبلغ الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو[130].

---

[127] المدارس النحوية ص29.

[128] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص54،56. بغية الوعاة 1/557-560، ونشأة النحو للشيخ الطنطاوي ص46.

[129] تاريخ النحو أ/علي النجدي ناصف ص17.

[130] نشأة النحو للشيخ الطنطاوي ص46.

آتاه الله حسًا لغويًا مدربًا، وذهنًا رياضيًا بارعًا، وذوقًا موسيقيًا مرهفًا، فبلغ الغاية في النحو، واخترع العروض وخرج به على الناس علمًا كاملاً، فاستخرج من هذا علم العروض، واستنبط منه، ومن علله ما لم يستخرج أحد، ولم يسبقه إلى مثله سابق من العلماء كلهم[131]، حيث حصر الخليل أشعار العرب واستنبط منها ما وضعه من علمي العروض والقافية، وقيل: إنه دعا بمكة أن يُرزَق علمًا لم يسبقه إليه أحد، ولا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حجه ففتح عليه بالعروض[132].

كما أنَّ للخليل فضل السبق إلى علم المعاجم، حيث حصر علم اللغة بحروف المعجم، وسماه كتاب(العين)، وهو كتاب معروف مشهور، به يتهيأ ضبط اللغة[133]، وله علم بالإيقاع، ومعرفته بالغنم ومواقعها أحدث له علم العروض، فهو يحمل في تضاعيفه ما يشهد بتمثله تمثلا رائعا للنغم، وعلم الإيقاع ومواضعه، كما يحمل علم العروض أيضاما يشهد بإتقانه لنظريات العلوم الرياضية في عصره علما وفقها وتحليلا، وخاصة نظريتي المعادلات، والتباديل والتوافيق، ولم يستغل الخليل نظرية التباديل والتوافيق الرياضية في وضعه علم العروض فحسب، فقد استغلها أيضا في وضع منهج قويم لمعجم العين المشهور، إذ بناه على تقليب كل الصيغ الأصلية، بحيث تندرج فيه مع كل كلمة الكلمات الأخرى التي تجمع حروفها وتختلف في ترتيبها بتقديم بعض منها على بعض، ف(كتب) مثلا يوضع معها (كبت)، و(تكب)، و(تبك)، و(بكت)، و(بتك)، وبذلك حصر في المعجم جميع الكلمات التي يمكن أن تقع في العربية مميزا دائما بين ما استعملته العرب منها وما أهملته ولم تنطق به، قياسا على ما ميز في العروض بين الأوزان المستعملة والأخرى المهملة، ورأى أن يكون

---

[131] تاريخ النحو أ/علي النجدي ناصف ص16،17.

[132] طبقات فحول الشعراء لابن سلام 22/1.

[133] أخبار النحويين ص54.

ترتيب الكلمات في المعجم على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي، وهو: الحلق، واللسان، والفم، والشفتان، بادئًا بحرف العين، وبه سماه، وهي في معجمه مرتبة على هذا النحو: العين، الحاء، الهاء، الخاء، الغين، القاف، الكاف، الجيم، الشين، الضاد، الصاد، السين، الزاي، الطاء، الدال، التاء، الظاء، الذال، الثاء، الراء، اللام، النون، الفاء، الباء، الميم، الياء، الواو، الألف[134].

وهذا الترتيب المخرجي لحروف العربية ابتداء من أبعد مخرج إلى أقرب مخرج من جهاز النطق لا يختلف كثيرا عما قرره علماء الأصوات في العصر الحديث، ولسنا بصدد التعرض للفرق بين صنيع الخليل وصنيع علماء اللغة المحدثين فيما يتعلق بمخارج الحروف، فإن ذلك مجاله علم الأصوات، ولكن ما نريده بيانه هو أ، الخليل أرسى قواعد المعاجم العربية كما أسس علم الأصوات.

وتجدر الإشارة إلى أن معجم العين للخليل مطبوع بتحقيق الدكتور/عبد الله درويش –رحمه الله تعالى– ثم قام الدكتور/مهدي المخزومي، والدكتور/إبراهيم السامرائي بتحقيقه، وقد صدر الجزء الأول والثاني والثالث والرابع في الكويت سنة1980م[135].

وللخليل منظومة في النحو حققها الدكتور/أحمد عفيفي، وقد وثق نسبتها إليه، كما أن أيضا (معاني الحروف)، و(جملة آلات الإعراب)، و(تفسير حروف اللغة)،

---

[134] المدارس النحوية د/شوقي ضيف ص31،32.

[135] المعاجم العربية المجنسة د/محمد عبد الحفيظ العريان ص53.

و(العروض)، و(النقط والشكل)، و(النغم والإيقاع)، و(الشواهد)، وكتاب (فائت العين)، و(المُعَمَّى)، وكتاب (شرح صرف الخليل)، و(كتاب التفاحة في النحو)[136].

وإن كان كثير من هذه المؤلفات منسوبًا إلى غير الخليل، ومن ذلك (التفاحة في النحو)، فقد حققه (كوركيس عواد) ونشره ببغداد سنة 1965م منسوبًا إلى أبي جعفر النحاس النحوي المصري المتوفى سنة 338هـ، وقد نسبته اللجنة المصرية الموفدة إلى بلاد اليمن في أواخر سنة 1951م برئاسة الدكتور/خليل يحي نادي، وعضوية الأستاذ/فؤاد سيد وغيره للبحث عن المخطوطات العربية فيها إلى الخليل بن أحمد، ولكن المحقق ذكر أنه لم يجده في مؤلفات الخليل، بل وجده منسوبا إلى أبي جعفر النحاس[137].

كذلك نسب بعضهم كتاب (العين) إلى الليث بن رافع بن نصر[138]، غير أنهم اتفقوا على أن الخليل هو الذي رسم له منهجه، لما لاحظوه من التقاء منهجه بمنهج علم العروض الذي رسمه، وقيام المنهجين جميعا على أساس نظرية التبادل والتوافيق الرياضية[139].

وإذا ذهبنا إلى ما تركه الخليل من مؤلفات صرفية ونحوية فإننا لا نجده قد خلف مؤلفا جامعا، بل ذكر له المترجمون بعض الأعمال الصغيرة: كرسالة له في معنى الحروف، وثانية في جملة آلات الإعراب، وثالثة في العوامل، ويظن القفطي أنها منتحلة عليه، ورابعا لعلها من عمل غيره؛ إذ تسمى (شرح صرف الخليل)، وإذا

---

[136] الأعلام للزركلي 314/2، دائرة المعارف الإسلامية 436/8، مكانة الخليل في النحو العربي د/جعفر نايف 31–35، الخليل بن أحمد، عباس أبو السعود ص151، ومقدمة المنظومة النحوية للدكتور/ أحمد عفيفي ص22،23.

[137] التفاحة في النحو، المقدمة ص3.

[138] المزهر في علوم اللغة للسيوطي 77/1.

[139] المدارس النحوية د/شوقي ضيف ص32.

كان الخليل لم يترك في النحو والصرف كتابا كبيرا مأثورا يضم فروعهما وشعبهما الكثيرة، فإن تلميذه سيبويه سجل في كتابه كثيرا من بحوثه النحوية والصرفية[140].

ويبدو أن الخليل كان مشغولا إلى حد كبير عن وضع المصنفات بحلقات العلم والدرس، حيث يفد إليه طلابه ومريدوه يأخذون عنه ما يلقيه إليهم، وما يمليه عليهم، وعدم وضعه لمصنف كبير في النحو والصرف لا يغض من قدره، ولا يقلل من أثره الواضح على مَنْ أخذوا عنه، قال الزُّبيدي: «وهو الذي بَسط النحوَ، ومَدَّ أطنابَه، وسبَّب عِلَلَه، وفَتَقَ معانيه، وأوضحَ الحِجاج فيه، حتى بلغ أقْصى حدودِه، وانتهى إلى أبعدِ غاياته، ثم لم يرضَ أن يؤلِّفَ فيه حرفًا أو يَرْسمَ منه رَسْمًا؛ نَزَاهةً بنفسه، وتَرَفّعا بقدْرِه؛ إذ كان قد تقدّم إلى القول عليه والتأليف فيه؛ فَكَرِهَ أن يكونَ لمن تقدّمه تاليًا، وعلى نظَرِ مَن سَبَقهُ مُحْتَذِيا، واكتفى في ذلك بما أَوْحَى إلى سيبويه من عِلْمِه، ولقَّنه من دقائقِ نَظره، ونتائج فِكره، ولطائفَ حكمته؛ فحَمل سيبويه ذلك عنه وتقلّده، وألفَّ فيه الكتاب الذي أعجَزَ من تقدَّم قبلَه، كما امتنع على مَنْ تأخَّرَ بعده»[141]. وبذلك يكون الخليل قد أسهم إسهاما كبيرا في تطوير الدرس اللغوي بوجه عام، والنحوي بوجه خاص. وكان الخليل عفيف النفس لا يختار صحبة الملوك والأمراء، وقيل، وقيل: لم يكن بعد الصحابة أذكر من الخليل ولا أجمع لعلم العرب منه، ويروى أنه «اجتمع الخليل وابن المقفع ليلة بطولها يتذاكران، وافترقا، فسُئِل الخليل: كيف رأيت ابن المقفع، فقال: رأيت رجلا علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيتَ الخليل، فقال: رأيت رجلا عقله أكثر من علمه»[142]. ويتضح مما قاله كل من الخليل وابن المقفع عن الآخر أن الخليل كان يعمل عقله وفكره أكثر

---

[140] المدارس النحوية د/شوقي ضيف ص34.

[141] المزهر للسيوطي 8180/1.

[142] إنباه الرواة 376/1-382.

من اعتماده على النقل والرواية، وهذا يدل على ذكائه وحكمته، فقد نقل الأصمعي عنه قوله: «العلوم أربعة: فعلم له أصل وفرع وعلم له أصل ولا فرع له، وعلم له فرع ولا أصل له، وعلم لا أصل له ولا فرع، فأما الذي له أصل وفرع فالحساب ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف، وأما الذي له أصل ولا فرع له فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم، أما الذي له فرع ولا أصل له ولا فرع فالجدل»، قال أبو بكر الصولي: يعني الجدل بالباطل. فهو يقسم العلوم قسمة عقلية إلى أربعة أقسام –من حيث أصالتها وفرعيتها– فلا خامس لها، كما قال الخليل: «أربع تعرف بهن الآخرة، الصفح قبل الاستقالة، أي: طلب الصفح، وتقديم حسن الظن قبل التهمة، والبذل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العُتْب»[143]. ولم يكن الخليل ذكيًّا حكيما إلى أبعد حد فقط، بل كان أيضا من الزهاد في الدنيا والمنقطعين إلى العلم، فيروى عنه أنه قال: إن تكن هذه الطائفة –يعني أهل العلم–أولياء الله، فليس الله ولي، ومما يدل على زهده، وعزوفه عن عرض الدنيا أن سليمان بن علي، وقيل: سليمان بن حبيب المهلب قد وجه إليه من الأهواز –وكان واليها– يلتمس منه الشخوص إليه، وتأديب أولاده، ويرغبه، وكان الخليل بالبصرة، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان بن علي خبزا يابسا، وقال: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي في سليمان، فقال الرسول: فماذا أبلغه عنه، فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنك في سعة*وفي غنى غير أني لست ذا مالِ**

سخَّى بنفسيَ أني لا أرى أحدًا*يموت هُزْلا ولا يبقى على حالِ**

وكان يقول الشعر: البيتين والثلاثة ونحوها في الآداب، كمثل ما يروى له:

لو كنتَ تعرف ما أقول أو كنتُ أجهلُ ما تقولُ

---

[143] إنباه الرواة للقفطي 1/381،382.

لكنْ جهلتَ مقالتي فعذلتني وعلمتُ أنك جاهلٌ فعذرتكا

كما يروى له في الزهد قوله:

وقبلك داوى المريضَ الطبيبُ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ

فكن مستعدًّا لداعي الفناءِ فإن الذي هو آتٍ قريبُ [144]

وقد كان مولد الخليل سنة مائة، وكانت وفاته سنة مائة وخمس وسبعين وتروي كتب التراجم ان سبب وفاته أنه قال: «أريد أن أقرب نوعًا من الحساب تمضي به الجارية إلى البياع فلا يمكنه ظلمها، ودخل المسجد وهو يعمل فكره في ذلك، فصدمته سارية وهو غافل عنها بفكره، فإنقلب على ظهره، فكانت سبب موته، وقيل: بل كان يقطع بحرًا من العروض، والله أعلم أيُّ الأمرين كان»[145].

سيبويه: هو: عمرو بن عثمان بن قَنْبَر، مولى بني الحارث بن كعب بن عمرو علة، وكنيته أبو بحر، وقيل: أبو الحسن، ولقبه: (سيبويه)، وهي كلمة فارسية معناها بالعربية: (رائحة التفاح)؛ لأنها مركبة من كلمة (سيب) بمعنى: التفاح: وكلمة: (وَيْه) بمعنى: الرائحة، وقد اشتهر بهذا اللقب، يقول الأستاذ /عبد السلام هارون: «وأما لقبه فقد سار مسير الشمس، وعرف به منذ قديم الزمان، لم يلقب به أحد قبله، وهو (سيبويه)»[146]وهو فارسي الأصل، ولد بقرية شيراز تسمى (البيضاء)، وفيها أو في شيراز تلقن دروسه الأولى، وطمحت نفسه للاستزادة من الثقافة الدينية، فقدم البصرة وهو لا يزال غلاما ناشئا، والتحق بحلقات الفقهاء والمحدثين، ولزم حلقة حماد بن سلمة بن دينار المحدث المشهور حينئذ، ولكن حدث

---

[144] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص 54-56.

[145] إنباه الرواة للقفطي 1/380،381.

[146] مقدمة الكتاب ص3.

بين سيبويه وحماد بن سلمة نقاش حول أحد الأحاديث عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– فجعله يشتغل بعلم النحو، ويتردد على حلقات النحاة الكبار فقد ذكر نصر بن عليّ أن سيبويه كان يستملي على حماد، فقال حماد يوما: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم: «ما أحدٌ من أصحابي إلا وقد أخذتُ عليه، ليس أب الدرداء»، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، فقال حماد: لحنتَ يا سيبويه، فقال سيبويه: لا جَرَم لأطلبن علما لا تُلَحِّنَنِي فيه أبدا، فطلب النحو، ولزم الخليل، فكان أستاذَه.

كما أخذ النحو أيضا عن يونس بن حبيب، وعيسى بن عمر الثقفي، وغيرهما، وأخذ أيضا اللغات عن أبي الخطاب الأخفش الكبير وغيره، ولكن أخذه عن الخليل كان يفوق أخذه عن غيره بكثير، حيث أخذ منه كل ما عنده في الدراسات النحوية والصرفية، مستمليا ومدونا، واتبع في ذلك طريقتين: طريقة الاستملاء العادية، وطريقة السؤال والاستفسار، مع كتابة كل إجابة وكل رأي يدلي به، وكل شاهد يرويه عن العرب، وبذلك احتفظ بكل نظراته النحوية والصرفية، قال أبو عبيدة: قيل ليونس بعد موت سيبويه: إن سيبويه صنف كتابا في ألف ورقة من علم الخليل، فقال: ومتى سمع سيبويه هـ<ا كله من الخليل! جيئوني بكتابه، فلما رآه قال: يجب أن يكون صَدَقَ فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عني.

وكان سيبويه علاَّمة، حسن التصنيف، وكان شابا نظيفا جميلا، وكان في لسانه حبسة، وقلمه أبلغ من لسانه، «ولم تذكر كتب التراجم أنه رحل إلى البادية في طلب اللغة والسماع عن العرب ومشافهتهم، غير أن ما يتردد في كتابه من مثل قوله: (سمعنا بعض العرب يقول)، و(سمعنا العرب تنشد هذا الشعر)، و(سمعنا العرب)، و(عربي كثير)، و(قد سمعناهم)، و(قال قوم من العرب ترضى عربيتهم)، و(سمعنا من العرب مضنْ يوثق بعربيته) يدل دلالة قاطعة على أنه رحل إلى بواديي نجد والحجاز مثل أستاذه الخليل، والكتاب يفيض بسيول من أقوال العرب وأشعارهم،

لا يرويها عن شيوخه، وهي بدورها تؤكد، بل تحتم أنه رحل إلى ينابيع اللغة والنحو يستمد منها مادة وعتادا فصيحا صحيحا بشاراته في النطق وهيآته»[147]. وكان الخليل يؤثره على سائر تلاميذه، فد قال بعضهم: كنت عند الخليل فأقبل سيبويه، فقال: مرحبا بزائر لا يُمَلُّ، قال: وما سمعت الخليل يقولها لغيه، وبعد موت الخليل خلفه سيبويه في حلقته، حيث قام بتدريس النحو، وقد نجم من أصحابه أبو الحسن: الأخفش الأوسط، وقطرب، وهو: أبو علي محمد بن المستنير، وأكبَّ حينئذ على تصنيف الكتاب، وسرعان ما أخذ نجمه يتألق لا في البصرة دار النحو فحسب، بل أيضا في بغداد، ورحل إليها طامحا إلى الشهرة في حاضرة الدولة، وحدث أن التقى بالكسائي مقرئ الكوفة ومؤدب الأمين بن الرشيد، وكان ذلك في دار يحي البرمكي، وقيل: بل في دار الرشيد، ويقال: إنه لقيه قبل الكسائي بعضُ أصحابه: الأحمر وهشام والفراء، ليوهنوا منه، ولم يلبث صاحبهم أن تعرض له بالسؤال في (المسألة الزنبورية)، إذ قال له: كيف تقول: (قد كنتُ أظن انَّ العقرب أشد لسعةً من الزنبور فإذا هو هي)، أو(فإذا هو إياها)، فقال سيبويه: (فإذا هو هي)، ولا يجوز النصب، قال الكسائي: لحنتَ، العرب ترفع ذلك كله وتنصبه، فدفع سيبويه قوله، وطال بينهما الجدال، وكان بالباب نفر من عرب الحطمة النازلينببغداد، ممن ليسوا على درجة عالية من الفصاحة، فطلب الكسائي سؤالهم، ولما سئلوا تابعوه في رأيه، فاستكان سيبويه، وقال: أيها الوزير، سألتك إلا ما أمرتَهم ان ينطقوا بذلك، فإن ألسنتهم لا تجري عليه، وكانوا إنما قالوا: الصواب ما قاله هذا الشيخ، فقال الكسائي ليحي: أصلح الله الوزير!! إنه قد وفد إليك من بلده مؤملا، فإن رأيت ألا ترده خائبا، فأمر له بعشرة آلاف درهم، فخرج إلى فارس.

---

[147] المدارس النحوية، د/شوقي ضيف ص 58.

ولم تطل مدة سيبويه بعد ذلك، ومات بالبيضاء، وقيل بشيراز، وقيل غمًّا بالذَّرَب (المرض الذي لا برء منه) سنة ثمانين ومائة، قال الخطيب: وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وقيل: نَيَّف على الأربعين، وقيل: مات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، وقيل: سنة ثمانٍ وثمانين ومائة، وقال ابن الجوزي: مات بساوة سنة أربع وتسعين ومائة[148].

الكتاب: من المعروف عند مؤرخي النحو العربي أن سيبويه لم يترك إلا مصنفا واحدا في النحو، ولم يطلق عليه اسما يعرف به، ولم يقدم له بما يكشف عن فحواه ومنهجه، كذلك لم يضع له خاتمة يلخص فيها ما وصلت إليه الدراسة، وهذا شأن المؤلفات الرائدة التي لم يسبق بمؤلفات تحتذيها؛ إذ إن مصنف سيبويه أول مصنف في النحو والصرف يضم بين دفتيه مادة علمية مكتملة، ويعلل بعض الدارسين عدم تسميته، وعدم وضع مقدمة وخاتمة له بأن سيبويه كان ينوي العودة إليه بتنقيحه وتهذيبه وإكماله، يقول الأستاذ/علي النجدي: «ولعله كان على نية العود إليه لبعض الأمر، لكن عائقا حال دون ما كان سيبويه»[149].

ولما ترك سيبويه مصنفه هذا بلا تسمية فقد تولى مَن جاء بعده تسميته، فأطلقوا عليه الكتاب، فكان كتابه عَلَمًا عند النحويين، فكان يقال بالبصرة: قرأ فلان الكتاب، فيعلم أنه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، ولا يشك أنه كتاب سيبويه[150].

---

[148] راجع ترجمة سيبويه في: أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص59، وما بعدها، وإنباه الرواة للقفطي 34/2، وما بعدها، وبغية الوعاة للسيوطي 229/2، وما بعدها، ومقدمة تحقيق الكتاب للأستاذ / عبد السلام هاروون ص3، وما بعدها.

[149] تاريخ النحو ص18.

[150] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص65، والمدارس النحوية د/شوقي ضيف ص57، وما بعدها، وتاريخ النحو للأستاذ/ علي النجدي ناصف ص18، وما بعدها.

وقد حاول بعض القدماء أن يشكك في نسبة الكتاب إليه؛ حيث قيل: إنه أخذ كتاب عيسى بن عمر المسمى(الجامع)، وبسطه، وحشَّى عليه من كلام الخليل وغيره، وأنه كان كتابه الذي اشتغل به، فلما استكمل بالحث والتحشية نُسِب إليه، واستدل هذا القائل بما نقل عن سيبويه من أنه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل سأله الخليل عن مصنفات عيسى بن عمر، فقال له سيبويه: قد صنف نَيِّفا وسبعين مصنفا في النحو، وان بعض أهل اليسار جمعها، وأتت عليها عنده آفة فذهبت، ولم يبق منها في الوجود سوى تصنيفين، أحدهما اسمه (الكامل)، والآخر(الجامع)، وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه عليك، وأسألك عن غوامضه، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه، وقال: رحم الله عيسى، ثم أنشد ارتجالا:

ذهب النحو جميعا كله*غيرَ ما أحدثَ عيسى بن عمرْ**

ذاكَ إكمالٌ وهذا جامعٌ فهما للناس شمسٌ وقمرْ

وقال ابن إسحاق النديم في كتابه: «قرأت بخط ابي العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه، والأصول والمسائل للخليل»[151].

وينبغي ألا نسلم بهذا التشكيك؛ فقد يكون بدافع الحقد ليه، وخاصة أنه من جانب الكوفيين الذين كانوا في تنافس دائم مع البصريين، ولا شك أن سيبويه قد اعتمد في جمع مادته العلمية على جهود مَنْ سبقوه؛ إذ لا يأتي عمل علمي ضخم مثل كتاب سيبويه من فراغ، ولم يكن سيبويه ينكر فضل من سبقوه، ومن تتلمذ عليهم وأخذ عنهم عليه، بل كان ينسب إليهم ما نقله عنهم تلميحا أو تصريحا،

---

[151] إنباه الرواة 347/2.

وحسبه من الفضل والعلم ما بذله من جَهْدٍ في جمع مادته وترتيبها والتعليق عليها وإبداء الرأي فيها.

ولقد أحاط الناس من بعده كتابه بالإجلال والتقدير، فكان المبرد إذا أراد مريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه، يقول له: هل ركبتَ البحرَ؟ استعظاما له، واستصعابا لما فيه، وكان المازني يقول: «مَنْ أراد أن يعمل كتابا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي»[152]، وقال السيرافي: «وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله، ولم يلحق به من بعده»[153]، وقال الجاحظ: «لم يكتب الناس في النحو كتابا مثله، وجميع كتب الناس عليه عيال»[154]، كما قال الجاحظ: «أردتُ الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات، ففكرت في شيء أهديه إليه فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه، فقلت له: أردت أن أهديَ إليك شيئا ففكرت فإذا كل شيء عندك، فلم أرَ أشرف من كتاب سيبويه، وهذا كتاب سيبويه اشتريته من ميراث الفراء، فقال: والله ما أهديتَ إليّ شيئا أحب إليّ منه[155]ن وقال ابن سلام الجمحي: «كان سيبويه النحوي غاية الخلْقِ في النحو، وكتابه هو الإمام فيه، وكان الأخفش اخذ عنه، وكان أفهم الناس في النحو»[156]، وقال الزجاج: «إذا تأملتَ الأمثلة من كتاب سيبويه تبينتَ أنه اعلم الناس باللغة»[157]

---

[152] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص65.

[153] المرجع السابق ص،64،65.

[154] إنباه الرواة للقفطي 351/2.

[155] السابق 351/2.

[156] السابق355/2،356.

[157] إنباه الرواة 358/2.

ومن المؤكد أن سيبويه بدأ تأليف كتابه بعد وفاة الخليل؛ إذ نراه في بعض المواضع يُعَقِّبُ على ذكره لاسمه بكلمة (رحمه الله)[158]، ولم يقدر له أن يقرأ الكتاب على أحد أو أن يقرأه عليه أحد، وإنما قرأه الناس بعده على أبي الحسن الأخفش[159]، فقد ورث –رحمه الله– علم سيبويه، وكان طريق الناس إليه، كما حمل سيبويه علم الخليل، وكان طريق الناس إليه[160]، وذلك لأن الأخفش كان أكثر تلاميذه ملازمة له وأخذا عنه، قال أبو العباس المبرد: «كان الأخفش أكبر سنا من سيبويه، وكانا جميعا يطلبان، قال: فجاءه الأخفش يناظره بعد أن برع، فقال له الأخفش: إنما ناظرتك لأستفيد لا لغيره، فقال سيبويه: أتراني أشك في هذا»[161].

وبعد، فلا تعرف العربية كتابا حفل به الناس وأفادوا منه على تعاقب الأجيال ككتاب سيبويه، فقد ألفوا عنه كتبا، وأداروا حوله دراسات لا تحصى كثرة.

ألفوا في شرحه، والتعليق عليه، والتمهيد له، وترتيب مسائله، وحل مشكلاته، وتوضيح غريبه، وشرح شواهده، وتجريد أحكامه، اختصروه، واختلفوا فيه: ما بين متعصب عليه، ومتعصب له، وانتصر لهؤلاء أنصار ومؤيدين ومنهم من انقطع له حتى حفظه، أو أتقن فهمه وتخصص فيه[162].

فمن ذلك تعليقات الاخفش عليه، وشرح أبي بكر محمد بن علي إسماعيل: مبرمان ولم يتمه، وشرح ابن درستويه، وشرح أبي سعيد السيرافي، وهو مشهور طبعت منه عدة أجزاء، وتعليقة أبي علي الفارسي، وشرح الرماني، وشرح أبي العلاء المعري، ولم يتمه، وشرح إبن خروف، وهو المسمى: (مُفَتِّح الأبواب في شرح

---

[158] المدارس النحوية د/شوقي ضيف ص59.

[159] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص66.

[160] تاريخ النحو للأستاذ /علي النجدي ناصف ص23.

[161] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص65.

[162] تاريخ النحو أ/علي النجدي ناصف ص22.

غوامض الكتاب)، وشرح الصفَّار، وشرح أبي حيان الأندلسي، وهو تلخيص لشرح الصفار.

ومنهم من شرح مشكلاته ونكته وأبنيته، ومن هؤلاء أبو عمر الجرمي، فله (تفسير أبنية الكتاب)، و(غريب سيبويه)، والزيادي، فله: (شرح نكت الكتاب)، والمبرد، فله: (المدخل إلى كتاب سيبويه)، وثعلب، فله (تفسير أبنية الكتاب)، والأعلم الشنتمري، فله: (النكت في كتاب سيبويه). ومنهم من شرح أبياته: كابن السيرافي، والأعلم الشنتمري، وغيرهما. هذا إلى جانب ما أُلِّف حوله من مختصرات، واعتراضات عليه، ورد هذه الاعتراضات[163].

---

[163] راجع مقدمة الأستاذ/عبد السلام هارون لتحقيق الكتاب 37/1، وما بعدها.